الدكتور ابراهيم ناجي

مدينة الأحلام

قصص ومحاضرات

الدكتور ابراهيم ناجي

مدينة الأحلام

قصص ومحاضرات

الاهداء

الى الوالد العزيز أحمد بك ناجى

أول قصة سمعتها أذنى كانت من شفتيك ، وأول كتاب قيم فتحت عليه عينى تناولته من خزانة كتبك ، وأول مرحلة فى طريق التأمل والتفكير كنت لى فيها هادياً ودليلا . فالى معلمى الأول ، الى المنار الذى شع لى ظلمة الليل

الى أبى الغالى ، أقدم هذا الكتاب ...

تصدير

ذكريات وداع

ذات ليلة منذ ثلاثين عاماً سمعت أبي يقص على أمي رحمها الله قصة أوليفر تويست لشارلز ديكنز . لا أزال أذكر تلك الليلة . وهيهات أن أنساها . كان إخوتي قد انصرفوا الى مضاجعهم ، وكانت ليلة من ليالي الشتاء ، والريح تعصف ، والمطر يقرع النوافذ بعنف ، وقد سكن الحيّ سكوناً تاماً ولم أعد أسمع حتى صوت الخفير الذي كنت أشعر له فى نفسي برهبة كلما دوى نداؤه في سكون الليل . كنت طفلا كثير التفكير أصغى إلى صوت المطر ، وإلى عصف الريح ، فأطيل الأصغاء وأدمن التأمل ، وأبنى فى خاطرى لنفسي قصة من قطرات المطر ، وغضب الرياح ، وما أزال أمعن في تخيل القصة وسبكها حتى يغلبنى النعاس . فى تلك الليلة استلقيت فى فراشي وقلت لنفسي ان عصف الريح اعوال شيطان ، يضربونه فى السماء بالسوط ، وان هذا المطر دموع.. دموع .. وعلى هذه الصورة أخذ النوم يزحف إليّ ببطء ، فطرق سمعي صوت أبي يقص على أمى قصة ... يقصها على مهل وبصوت متهدج حزين ، وبين حين وآخر أسمع صوت نارجيلته ، وأشم لها عبقاً لا يزال فى أنفى الى اليوم . فألقيت عنى الغطاء ، وزحفت الى سرير أبي ، فتلقاني بحنانه العجيب . ومرت ليلة بعد ليلة بعد أخرى ، حتى سمعت أوليفر تويست لآخرها ، وطالما رأيت هذا الطفل المعذب فى نومي ، وطالما شكوت لأبى ان ثيابه الرثة تزعجني ، فكان يضحك قائلا عندما تراه

مرة ثانية استوقفه لتعطيه ثوبا مما لديك ... ومرت سنتان،قرأ لنا أبي فيهما غير ديكنز . قرأ كونان دويل ، وهاجارد وغيرهما ، فكنت أجرب فى اخوتي طرق شرلوك هولمز وأخيفهم بما عرفته من هاجارد عن السحرة في مجاهل أفريقيا ...

ومرت سنتان كذلك وجاء يوم لا ينسى . زف الى أبي أني نجحت فى الابتدائية وسألنى عما أريد أن يهديني اياه ، قلت كتاب ، فتهلل وجهه واصطحبنى الى مكتبة دعر التى كانت قائمة فى ذلك العهد فى شارع كامل واشترى لي قصة دافيد كوبر فيلد لشارلز ديكنز . وأوصاني أن أقرأها كلة كلة ، وأن أستعين به فى فهمها ، فصنعت ، وقد كنا نسكن شبرا ، وشبرا منذ ثلاثين سنة كانت بساطاً أخضر شعرياً بديعاً تتوسطه ساقية وعلى حفافيه شجرات جميز ؛ وتوت ، فكنت أمضى الى تلك المروج ومعي صديق تأملاتى دافيد كوبر فيلد ، فما زلت به حتى قرأته مثنى وثلاث ورباع ، ومازال بي حتى خلق منى أديباً وشاعراً سامحه الله ! الحق أني لا أدرى أحسن القدر الىّ أم أساء .أبي كان يحبب ديكنز اليّ ليصقل شعورى ، ويزرع فىّ الانسانية ويعلمنى التأمل والملاحظة ، أما ديكنز فقد حبب الى الأدب على الاطلاق ، وأما دافيد كوبر فيلد ، فقد خلق منى شاعراً ، وجعلنى أبحث لي عن « دورا » أخرى أشرب من عينيها خمر الحياة ، وأتلقى من شفتيها أسرار الوجود ؛ سامحه الله مرة ثانيه ؛ لقد عذبتنى « دورا » هذه وشطرت روحي شطرين

أراد ابي شيئاً ، واراد ديكنز شيئاً ، وأراد كوبر فيلد شيئاً ، وأراد القدر اشياء غير هذه ! ما أظلم القدر ! فقد شاء أن أكون طبيباً . وليس بالطب من حرج ، وانما الحرج أن يكون الخيال مركباً فى طبيعة انسان ، فاذا بالقدر يواجهه بالواقع ويصدمه وانما الحرج أن يكون الشعر مركباً فى طبيعة انسان، فاذا بالقدر يضعه فوق أسنة المادة ويزجه فى الدائرة التى لا شعر فيها ولا وخيال ! وانما الحرج أن تكون طبيعته أن

ين... انات الروح ، فيأخذه القدر الى حيث ينصت الى انات الجسد ، وشتان
بين... تلك ! وانما الحرج أن تجذبه طبيعته لناحية ومهنته لأخرى ، حتى يتمزق
...هذى وجذب تلك ، وانما الحرج أن تراه يلائم بين الضدين ، ويوفق بين
... . وأخيراً ! أخيراً يلتفت فاذا نفسه أشلاء ؛ وإذا الذبالة تحترق والزيت
...وإذا معين القوة قد أشرف على الزوال ، واذا الجبار قد مزق اوصاله ذلك النضال
... بين الغرائز والقدر ، بين الميول والصروف ، بين الخيال والمادة ، بين الوهم
... ، بين الروح والجسد !

بالأمس أخرج الشاعر ديوانه ،

واليوم قد أخرج القاص ما لديه من قصص . وافضى المفكر بما أنتج فكره .
و... غداً ينطوي الشاعر ، وينسى القاص ، ويتلاشى المفكر . . غداً يتغلب القدر ،
ويـ... الخيال ، وتحطم الروح اعز امانيها ، واغلى ميولها ، غداً تحرقها وتنظر الى
لهيبـ... كما تنظر الي الشفق والشمس ذاهبة ، غداً فراغ . غداً يمشى الطبيب الى
قبر الاديب الذى كان ذات يوم هو نفسه وقد حمل فى يده زهوراً . فيضعها عليه
دامع ... ثم يعود فاذا الطريق خاوية مقفرة واذا به فى زحام الناس . كواحد من الناس
يجوع ... وتضحك له الدنيا فيتهلل . وتعبس له فينقبض . فعل منعكس
واستجابة لدافع .

ويمر به ... ، فلا يرى فيه غير مظهره ، وأما المعنى والروح فقد مضى
بهما الشاعر ... ويستمع للموسيقى ، فيصيح مع الصائحين ، ويصخب مع
الصاخبين ، اما ... الدفينة التى تقف بالمستمع على حافة الابدية ؛ أما السلاف
السماوية التى تنسكب ... أعمق أعماق النفس ، كل هذا انطوى مع الفنان الذاوى
بأسفاه .. وغداً يمر ... ، فيراهم صوراً متشابهة ، آلات فحمها الرزق ، ومحركها

الجنس والجوع ... أما الفيلسوف الذى كان يرى كل صورة ، بل كل صغيرة صورة ، مجال تفكير وتأمل ودرس ، أما ذلك الفيلسوف فذهب فى أثر والفنان . . .

وداعاً أيها الشعر

وداعاً أيها الفن

وداعاً أيها الفكر

وداعاً . ودمعة مُرة وابتسامة أمرّ !

ابراهيم ناجى

مدينة الاحلام

قصة مصرية



في صباح يوم من أيام الشتاء كانت حارة علام بقرب شارع محمد علي قذرة مترعة بالأوحال وكان البقال عبد الدايم يفتح حانوته وبائعة اللبن تقرع باب المنزل المجاور . ومرت بضع عربات كارو . وأخذ صاحب القهوة البلدي المواجهة للمنزل يصف كراسيه ويسعل سعالاً جافاً وتبادل البقال عبد الدايم والمعلم سلام صاحب القهوة التحيات المعتادة وظلت بائعة اللبن تقرع الباب على غير فائدة . وصاح بها البقال : « الجماعة عزلوا » فتحركت الورقة « للايجار » المعلقة بالشرفة كأنما تثبت وجودها وتؤكد كلام عبد الدايم . ثم زادت الحركة فى الحارة ونزل الصبية يجعلون من الوحل ميداناً ، ومن البرك ملاعب يسبحون فيها وجاء الباعة ينادون على بضاعتهم وجلس بعض النسوة على جانبي الطريق يبعن طعامهن القذر ويجمعن الذباب وينشرن الأوبئة وأخيراً تمت صورة كاملة من صور تلك الحواري البائسة المنسية ، وكانت الشمس لم تبدد تماماً الضباب المخيم على ذلك الحي فكان الجو صافياً من ناحية وغائماً من ناحية أخرى ومهدداً بمطر جديد تعلو به الأوحال وتتسع البرك .

وماذا يهم ذلك ، أوحال أو برك أو غيم أو صفاء أو ضنك مخيم أو عدل شامل . اذا طلع الصباح فتح عبد الدايم حانوته والمعلم سلام قهوته وجلست أم آمنه بائعة البرتقال بعشتها فاذا انصرم النهار آبوا جميعاً إلى مساكنهم المريعة ، ليعودوا فى اليوم التالي وتجري الحياة مجراها فى الرزق الضيق والبلاء الواسع !

كان المعلم سلام يصيح بصبيه غاضباً ويلعن اليوم الذي جاء فيه الى القهوة ، ثم

يتبع ذلك بسعاله الجاف . والبقال عبد الدايم يزن رطلاً من الصابون ويحلف انه لا يوجد أدق من ميزانه ، ولا أحسن من ذمته وكان الذباب يحتفل على مشنة أم آمنه فاذا دفعته قائلة : « هش » جمع جموعه وعاد يغطي تماماً البرتقال الصغير الجاف المنقوط . كان هذا يحدث في حارة علام حينما وقفت عربة كارو تحمل أمتعة وتقف أمام المنزل الخالي فترك البقال الميزان . وترك المعلم سلام صبيه ، وترك الذباب مشنة أم آمنه ، وانضم اليهم بعض الصبية ، ومضوا في موكب ، ليروا من الساكن الجديد ولينظروا نظرة تقديرية الى الأمتعة،من صحاحير وحلل وكنبات وكراسي ودواليب وفي الحق لم تكن تلك الأمتعة دالة على الفاقة ، بل دالة بشكلها وصبغتها الحائلة على عز قديم وفقر جديد

وكان يرافق العربة شاب على دراجة وكنت ترى على بذلته وحذائه طابع الفقر ولكنك كنت تلمح في الياقة النظيفة والقميص الأبيض ، وفي وضع الطربوش ورباط الرقبة ، رمز الأصل القديم ، وتؤمن بذلك وهو ينزل عن دراجته ويمضى الى الباب ليفتحه . لقد كان يمشي مشية الأمير المخلوع وينظر الى الحي الفقير نظرة طويلة مستسلمة .

وكان اسمه — أمين سليم — وكان المنزل مكوناً من طابقين كلاهما خالٍ . ولكنه اختار اعلاهما .

نادى على الحوذى أن يحمل الأمتعة ويضعها في ردهة الطابق الأرضي . فاستعان الرجل بزميله وأخذوا يراكمونها فلما انتهوا من عملهم أخذ أمين يبحث في جيوبه عن الأجر والرجل ينظر اليه نظرة النسر يريد أن ينقض ويعد نفسه للعراك ويتهيأ له

لقد كان الرجل متفقاً على أجر معلوم ومع ذلك فهو من تلك الفئة المجرمة التى تضطرها الفاقة ألا تحافظ على قول ولا تبقى على ميثاق . ومع ذلك فهى فئة تأسرها الضحكة الطيبة والكلمة الرقيقة وفيها كثير من الخلال الكريمة والنخوة والاريحية وكان أمين ذكيا يفهم ذلك أتم الفهم فبسط اليه — ضاحكا ضحكته الوديعة — كل الفكة

التي في جيبه قائلاً التي انت عاوزه خده. فخجل الرجل النسر وتدلى منقاره في ذلة ، وتوارت شراسته . وا كتفى بأجر يزيد زيادة معقولة أخذه وانصرف .

وبعد قليل جاءت عربة تحمل سيداً وسيدة وخادماً وكان السيد شيخاً قارب السبعين يحمل وقار مجد سالف فوق وقار السنين وفوق وقار الصبر الذي ارتسم فى تجاعيد وجهه وكانت السيدة أقل منه سناً لاتزال تحتفظ بالبرقع الأبيض وبمسحة من جمال ذاهب وبقية من كبرياء أناخت عليها السنون .

أسرع الخادم فقرع الباب . ففتح لهم ووقف أمين على عتبته مرحباً ، وساعد الوالد والوالدة على النزول من العربة فلما دخلوا المنزل وصعدوا الدرج الخشبي أوشكت الشفاه أن تحتج ووقفت الدموع المكظومة على طرف المحاجر ذاهلة : ثلاث غرف صغيرة وأخرى في السطح ، ونوافذ بالية قديمة تطل على منازل مجاورة منغمسة في الذل والظلمة ، تموج سطوحها بالنسوة هذه تنشر غسيلها ، وتلك تخاصم جارتها وتنشر لها ماضيها القذر !

ولكن القلوب النبيلة شبيهة باشعة الشمس فهي تنزل بالروضة الجميلة ، كما تحل بالأرض الموحلة لاتتغير ولا تكون غير أشعة الشمس ، فان الغيوم مرت على تلك القلوب الكريمة لم تلبث حتى تبددت وعادت الأشعة الى الاشراق وأخذ الجميع يتعاونون على تنظيف المنزل وترتيب الأثاث واختص أمين نفسه بغرفة السطح فنقل اليها كتبه وسريره وأدواته القليلة .

* * *

وبعد أسبوع جاء مستأجرون للطابق الأرضى ووقفت عربة كارو تحمل أمتعتهم وتلتها عربة تحمل أفراد العائلة وهم سيدة كهلة وفتاة رائعة الحسن وخادمه .

وكانت الساعة الخامسة مساءً حين عاد أمين متعباً يحمل كتبه ويحمل فوق

منكبيه عبء رجولة مبكرة ، ولم يكن قد علم بعد بالجيران الجدد، فلم يكد يصعد الدرج حتى خرجت الفتاة لترى القادم فصاحا فى وقت واحد :

— سنيه :

— أمين

ولولا أن أطلت رؤوس الوالدين ناظرة بعيون مذهولة إلى هذا التعارف الفجائى، لرأينا عناق الشوق المكظوم واللهفة المستترة أعواماً لا تعد !

منذ عشرين سنة كانت شبرا الجميلة كالزمردة الصافية تزهو باليانع الأخضر . والبساط الرائع الذى هو سحر مصر ، وفتنتها العتيدة التى جرت اليها الغزاة أجناساً ونحلا ، نعم شبرا الجميلة . التى اكتظت اليوم بالمساكن المتلاصقة وأفسدتها المدنية الجديدة ، ونزح اليها خلق كثيرون اشتروا تلك المروج البديعةوابتنوا بها مساكنهم الصغيرة المتقاربة ،كانت بساطاً واحداً . قامت فى وسطه هنا وهناك منازل لحمامات بيضاء بسطت أجنحتها . وهمت أن تطير إلى ساقية أو قناة أو غدير ، وكنا نعود من مدارسنا في غروب الشمس ، فنترك كراساتنا وكتبنا فى بيوتنا ثم نسرع إلى تلك المهاد حيث رباصبانا ونما مع الغصون النامية وحيث تنسمنا الريح الرقيقة ، تجرى الشعر فى دمنا ، والحب في أرواحنا ، والصفاء في طبائعنا ، أيام كنا نثب فراشات مع الفراشات الهاربة وأشعة مع الاشعات الغاربة ، وما نزال كذلك حتى تخور قوانا فنرجع لنذاكر أو ندعى أننا نذاكر ، فاذا كانت ليالي القمر نطلع على الحقول الساكنة والسواقى الحالمة . جلسنا عند شجرة ، فاذا الشجرة تصغى والليل الجميل يرهف أذنه الى حديث أطفال تتبدد موجاته في بحر ذلك السحر الرهيب سحر القمر والطفولة والمروج .

* * *

في ليلة من ليالي رمضان التقي الصبي أمين سليم برفقائه تحت شجرة الجميز الكبيرة القريبة من الساقية ، وجلسوا يتنادرون وحديث الصبية لايعدو المدرسة والمدرسين والامتحان ، فاذا خرج عن هاته الدائرة يعرض للمبالغات ، والادعاء والفخر والتشبه بالرجال ، وأحياناً يكون سكون الليل وجمال القمر مغرياً على اعترفات يتبادلونها همساً شأن الكبار ففي الليلة التي نحن بصددها كان أكبرهم سناً يسخر من أمين ويقول: بالكم أمين ده اللي انتو شايفينه ساكت ده كل يوم وهو راجع من المدرسة يشتغل خدام لسنيه بنت شكري بك ويشيل لها الكتب بتاعتها !

فضحكوا كلهم وصاحوا : صحيح ؟ فخجل ولم يجب وكان صمته اعترافاً . على ان الصبي كان في هذا العمر الناضر جاداً غير عابث وقد حزن لذيوع سره ، وجعله موضع دعابة ، ولبث واجماً حتى انصرفوا كل الى منزله

قبل هذه الليلة بشهرين ، وقفت الصبية الجميلة سنيه أمام باب المدرسة تنتظر الخادم . وكان يبدو في وجهها الناحل سحر وخيال وابهام كل ذلك في سمرة كسمرة الفجر وحمرة على الخدين لحمرة الشفق حمرة تزداد وضوحاً كلما لحظتها أعين الصبية الواقفين عن عمد أو غير عمد ، ويزيدها حلاوة وغرابة . مريلة المدرسة الزرقاء والقبعة النظيفة السليمة الذوق تنساب من خلفها ضفيرتان من الشعر الأسود الحالك وفي نفس الوقت خرج أمين سليم من مدرسته في نفس الشارع ووقف أمام باب المدرسة ينتظر الخادم .

طال انتظارها لخادمها . وطال انتظاره لخادمه ، فلم يأت هذا ولاذاك ، فضجرت وضجر ، واعتزمت أن تعود وحدها على غير عادة ، واعتزم كذلك ، ومشت الفتاة لاتلتفت يمنة ولايسرة ، وتعمل بنصيحة امها ، (ماتكلمش حد) وترك الفتى باب مدرسته ، مهرولا ، وكان يرتدي بذلة جميلة غالية الثمن ، ولكنه كان يبدو عليه

الاهمال فى ملبسه ، ويبدو على وجهه النحيل أثر التفكير

وكان الطريق إلى المنزل يعترضه « مزلقان » وطالما راح القطار وجاء في «مناورة» ثقيلة ، وربما كنت ذاهبا الى موعد أو مدرسة ، فوجدت سلم المزلقان ينزل فى سرعة ، ويحول دون مرورك ، ويبدأ القطار الثقيل في الغدو والرواح

ففي هذا اليوم كان الشارع مزدحما بالباعة والعربات الكبيرة التي تحمل الحجارة . والمزلقان قد نزل سلمه ، والقطار العجيب يروح ويغدو

وفى الساعة التى اختارها القدر ، وقفت سنيه أمام المزلقان ووقف امين ، وجاء غلام يدفع عربة يد ، فمست يده يد سنيه فسقطت كتبها فتناولها امين الخبيث ولم يعطها إياها

علت خدها حمرة الشفق ، وطغت على الحدود المألوفة . وأطرقت لاتدري ماذا تصنع ، بعد ذلك رفع المزلقان سلمه وأخذ الناس يتدافعون ، ويتزاحمون بالمناكب فتقدم الصبي والصبية ثم جمعهما القدر فى سبيل واحد وسارا صامتين ، زمنا لا حساب له ، حتى وقفت فجأة فادرك انه قد آن أن يفترقا ، فاخرج لها كتبها، ثم عز عليه ان تمضى بدون أن يتعارفا فسأل :

— اسمك ايه

— سنيه شكرى

— وانا امين سليم

— فى سنه ايه ؟

— سنه رابعه

— وانا كمان

— ساكنه فين ؟

— فى شارع شبرا . . .

— قريب منا ياريتك تيجى مره في القمر نقعد تحت شجرة الجميز قرب الساقيه

ولاح خيال خادمه من ناحية وخادمها من الناحية المقابلة ، فابتعد وابتعدت

وصار يراها كل يوم فيتبادلان التحية بالنظر ويتمنيان لو أن الخادمين مرضا أو غابا أو اصابهما حادث

ثم انقطعت عن المجيء ، وصارا الطريق مقفراً لا يطاق ، ومضى فى ضوء القمر الى الشجرة التي تمنى ان يراها عندها ، مضى مراراً ، والحنين اليها يتسع فى قلبه حتى صار نارا آكلة

ذات ليلة ذهب في سرب من رفقائه الى حيث يتلاقون ، فمر بسرب من الفتيات يتحادثن عند باب منزل فطرق اذنه صوت يعرفه ، فتخلف عن اصحابه ، ووقف في ناحية يسترق السمع فسمع سنيه (وكانت هى) تقول همساً لصاحبة لها :

نعم التقط كتبي ووضعها فى محفظته وتمنى أن يلاقينى فى ضوء القمر تحت شجرة الجميز عند الساقية . أنه غير جميل ولكنه رقيق ومن عائلة كبيرة على انه قد نسينى بالطبع

تخفق قلبه ، وانكمش في الظلمة الكثيفة واجابت دمعة حارة ان هذا غير صحيح

ثم سمع خطاها تبتعد ، وهو في الظلمة جامد في مكانه ، ثم مرت الأيام وابتعدت خطاها عنه فى الحياة

واقبل الفقر يطحنهما متفرقين ، حتى التقيا في المنزل الحقير بحارة علام

كان الليل هادئا والقمر في السحب الصافية يلوح جليلا في حيرته ، يبدو من خلال سحابة ثم يستتر وراء اخرى ، وكأنه ينظر الى الدنيا بعين ملولة ، ويرى ان اهلها لا يستحقون ما يقدمه اليهم من النور القدسى الجميل ، اذ بينما يشع عليهم من

وجدانه وقلبه يغط بعضهم في النوم ، وبعضهم لا يفهمون انه يعلمهم السمو والنبل ، فيمضون الى اتيان لذة محرمة أو منكر لا يليق ، نعم كان القمر فى تلك الليلة يعتزم ان لا يطلع على الدنيا واستتر وطال استتاره لولا ان اليد الخفية الجبارة دفعته من وراء السحاب فطلع كارها ، وغمر نوره القاهرة وفاض على اعالى القصور كما فاض على السطوح الفقيرة فى حارة علام

فى تلك اللحظة فتح امين سليم النافذة وتنفس طويلا ، ونظر الى القمر نظرة مبهمة ثم عاد الى النافذة ، فاغلقها في ضجر وملال

واستوى امام مائدته ، وجعل مصباحه قريبا من يساره ، وفتح كتابا ثم اغلقه ، واجال بصره فى الغرفة الفقيرة الاثاث . فهذا سريره الذي ينام عليه منذ عشر سنوات. تفككت اعمدته ، وطالما اصلحها فعادت كما هي ، فمل اصلاحها ، ورضى بصريرها المزعج كلما حدثته نفسه ان يرتاح على فراشه ، وهـذا هو الكرسي الطويل بجانب السرير ، وطالما اكتفى بالنوم عليه وتلك هي السجادة الوحيدة الباقية من فرش القصر الكبير ، وهذا هو رف الكتب ، قطعة عادية من الخشب مفروشة بالورق الملون المقصوص ، وذلك هو مصباحه الباهت النور ، مصباحه الثقيل الذي ينخفض نوره من نفسه ويحتاج الى يد تعليه كل آونة ، فاذا علا اندفع لسان من اللهب يهدد الزجاجة بالكسر والسقف « بالهباب »

فى تلك الليلة كان امين يرتدى جلباباً خفيفاً ابيض . وكان وجهه شاحباً قلقا ، وكان يفتح كتابا ثم يغلقه ، ويضع نظارته على عينيه ثم يخلعها ، ويجلس على كرسيه قبل المائدة ، ثم يتركه ليجلس على حافة السرير ، ثم يترك حافة السرير ليجلس على الكرسى الطويل

فبينما هو فى ذلك القلق الغريب ، دق الباب دقا خفيفا ، فوثب مرتجفا واسرع اليه وما لبث ان صاح هامسا :

— سنيه ؟

— (بهمس وخوف) ايوه ...

واقفل الباب عليهما فى حرص وسرعة

وكان المصباح الملعون قد عاد نوره الي الانخفاض واصبحت الغرفة فى شيء من الظلمة ، وترامت ظلال كثيرة علي الحائط جعلت الغرفة كالمعبد المرهوب ، وفي وسطه عابدان لايتكلمان ، وانما تقول الظلمة ، وشعاع القمر الداخل من النافذة كاللص ، انهما لبثا متعانقين ، كالموجتين ، وجلباباهما فى البياض كرغوة الزبد . وتخلصت سنيه بلطف ووقفت بعيداً ، وكان قوامها ممشوقاً وشعرها المتهدل الجميل قد قارب وجهها فأزاحته بيدها البضة الناعمة ، ومضت إلى الكرسى الطويل متباكة ، وجلس أمين على السجادة مسنداً رأسه إلى ركبتيها وصارا يتكلمان همساً :

— كم سنة ياسنيه ، والله مانسيتك لحظة . شوفى افتقرنا وجينا فى حارة فى شارع محمد على

فأرسلت سنيه دمعة حارة ولم تجب ، فاستمر قائلا — ودخلت التعليم العالي مجاناً بواسطة ، وعلى أن أشتغل وأن أنجح بسرعة ، والا ماذا يصنع أبى المسكين ، فلم تجب سنيه . وأمسكت برأسه ، وجعلت وجهه اليها تطيل التحديق فيه ، ثم قالت حزينة:

— حالكم أحسن من حالنا بكثير ، أبى مات ولم يترك لنا شيئاً تقريباً ، وصارت الحال تمشى من سيء إلى أسوأ حتى جئنا أيضاً إلى الحارة نفسها فى شارع محمد علي !

فذرف بدوره دمعة ولم يجب ، واستمر الصمت وأخذت الذبالة فى المصباح الملعون تنذر بظلمة كاملة ، واذا بمواء قطتين ذكر وانثى بالطبع ، يتحابان فى ضوء القمر ؛ ويسران الطبيعة بتحقيق أحلامها

فضحكت سنيه وأمين معاً وهمست ، دي قطتنا وقطكم ، ثم زمت شفتيها فى

خفة معبودة وقالت : ألا تذكر يا أمين أحلامك فى شبرا ، وأمانيك أن نتحاب في ضوء القمر ، لقد أنعمت الدنيا بأمانيك على قطتينا ، أجاب : معلهش ياسنيه آدي احنا اتقابلنا ، وما دمت اراك فسأشتغل وأنجح ، ولا يلبث هذا الضنك أن يزول ؛ فصاحت فجأة كأنما رأت الضنك قد زال حقيقة :

— وبعد أن يزول الضنك ؟

— نتزوج

— وبعد ذلك ؟

— يكون لنا أولاد

— وبعد ذلك ؟

نـكون قد اقتصدنا مالا كافيا فنبنى منزلا خاصا

— وأمي . وأبوك وامك ؟

يكونون قد تقدموا فى العمر ، فنسعد مشيبهم ونجعله كل رخاء .

— وحبنا ؟

— يزيد على السنين ، وينميه من ناحيتينا اخلاصي واخلاصك وتسامحك وتسامحي.

ثم همت ان تلقى سؤالا جديداً ، ولـكن غمامة عبرت فـكرها فجأة ، ولاحت لها صورة لا تحبها ، فادرك ذلك امين فسألها فامتنعت عن الاجابة ، فالح ، فقالت «واذا تعرض لنا زكي ابن خالتي » :

فانتفض امين وتغيرت ملامحه ، وتركت رأسـه ركبتيها ودار بعينيه فى الظلمة يبحث عن زكي ابن خالة سنيه ؛ زكي الثقيل بجسمه الضخم ؛ وسوالفه الـكريهة ؛ وعينه الزجاجية ؛ وغناه الفاحش . واللبانة التى يمضغها — دائماً . . . دائماً .

تغير الفتى الوديع عند مرور تلك الصورة البشعة وقال اقتله والويل لك اذا فـكرت

فى ان تميلى اليه

قالت — انت تهينني واذا ذكرت هذا ثانيا فلن أعود أبداً

فاستعطفها وعاد ليسند رأسه على ركبتيها

وطردا تلك الصورة الكريهة ، وعادا ليكملا مدينة الاحلام . واوشك الفجر ان يطلع على تلك المدينة التى جلسا يبنيانها معاً . فوقف امين فجأة ، قائلا

— سنيه

— نعم

— شايفه الفجر اللي قرب يطلع ؟

— ايوه شايفاه

— احلفي انك لى وحدي ؟

— احلف

— هاتي فمك

فمدت اليه شفة سحرية رطبة كالشليك الندى ثم انسلت الى غرفتها ، وهي تنزل السلم فى بطء وحذر !

وكان ذلك اللقاء يتكرر ومدينة الاحلام تبنى مع الليل وتتبخر مع الفجر . وامين يدأب . ويرى امانيه تدنو . حتى كان ذات صباح خارجا بكتبه الى مدرسته فرأى زكي ابن خالة سنيه جالسا الى مائدة فى قهوة المعلم سلام فعجب من تلك الجلسة المبكرة وكان شجاعا يفضل مواجهة الامور فمضى الى غريمه توا :

— صباح الخير ياسى زكي ايه اللي جابك الصبح بدري كده

— فاعتدل سى زكي فى كرسيه بكبرياء وقحة وأدار اللبانة فى فمه القبيح وقال بلهجة ساخرة :

— علشان ازور قرايبنا جيرانك . وصفق على الصبى ثم مد يده الى جيبه يرن النقود ويؤكد لامين من جديد انه غنى وانه بهذا الغنى سيملك ابنة جيرانه

قال امين :

— ولكن الزيارة تبقى بدرى كده ؟

— ده مش شغلك

فثار الدم فى وجه امين ولم يدر بالضبط ماذا حدث غير انه وجد القهوة ممتلئة بالناس ووجد سى زكي فى وسطها والدم يسيل من انفه وهو يسب ويلعن ورأسه عار وسوالفه القبيحة ملوثة بالدم

والحقيقة ان امين بدون ان يدري ما هو صانع تناول كرسيا فهرب سى زكي الى داخل القهوة فطار الكرسى وراءه وتبعه آخر بنفس السرعة فاصابه فى انفه فلما رأى الدم هاجه ذلك ووثب بجسمه الضخم على غريمه ولكن المعلم سلام كان قد جاء وجاء ناس آخرون فحالوا بينهما وتهدد زكي وتوعد وقال بكره تشوف

وجمع امين كتبه فى كبرياء وانفة ، وانصرف بدون ان يرد .

وقالت سنيه لأمين فى غرفته بعد ايام :

— اما علقة اللي كلها زكي . تعرف انه دخل عندنا بعدها . وأمى أكرمته وطيبت خاطره ومسحت له جرحه ووضعت له صبغة يود . أمى المسكينة تراه غنياً وتلاطفه لعله يتزوجنى . وهو يدخل بيتنا ويتقرب الينا لهذا الغرض . أمس جاء عندنا وقال لأمى ان الحكيم قال له ان عظمة انفه من فوق انكسرت وستترك عاهة مستديمة . لأن انفه ينخسف من أعلى . وسيرفع عليك قضية

فضحك امين وقال : لتزيد شكله قبحا . أما القضية فليرفعها علي في اوربا ..!

فسألت مندهشة أوربا ؟ كيف ؟

قال : انا نجحت فى الامتحان الاخير كما تعلمين . وسأسافر فى بعثة ان شاء الله بعد اسبوع .

فضربت صدرها بيدها . قائلة اتتركنا ؟ قال نعم لكى اختبر القسم الذي أقسمته والفجر موشك الطلوع . قالت وهى تجهش بالبكاء . كن مطمئنا . واعتنقا . وطال عناقهما . ثم انسلت الى غرفتها . وهى تنزل السلم فى بطء وحذر

* * *

من أمين الى سنيه

لندن فى ٧ ابريل سنة ١٩٢٨

حبيبتى سنيه

جلست وحدي فى غرفتى قرب المدفأة اقرأ خطاباتك الجميلة . خطاباتك التى ملأت حياتى أملا . وانستنى غربتى وجعلت منى رجلا . لقد كان خيالك الجميل . واقسامنا كل ما أوشك الفجر ان يطلع ومدينة الاحلام التى شيدناها معا . تلك الصور كانت لا تبارح ناظري . نعم مرت سنون جهاد عنيف . ولكنى لم اكن أعبأ بها . ولا ابالى بمتاعبها . ما دمت فى انتظاري

آه ياسنيه ان لندن بحالها . لندن العظيمة الضخمة . لا تساوى ركنا من مدينة الأحلام ! وعلى ذكر هاته المدينة المسحورة انى اراك الأن فى ركن منها يغمره القمر . وتنام فيه الزهور آمنة ، نعم اراك الى جانبي وامضى في تقبيلك بلا حساب ...!

حبيبك

أمين

* * *

من سنيه الى أمين

القاهرة في ٢٥ مايو سنة ١٩٢٨

حبيبي امين

استلمت خطابك وسرني ان اسمع انك في صحة جيدة ، اما نحن فقد ضاقت بنا الحال . شكرا للنقود التي ترسلها الينا مما تقتصده ، واننا نعلم ما يكلفك هذا من التقتير على نفسك وأنت فى بلاد غريبة ، نعم ضاقت بنا الحال ياامين وتركنا جيرتكم الهنيئة . ورحلنا الى منزل اقل إيجارا . وقبل ان تنتقل اليه صعدت فى الليل الى معبدنا المقدس . ووقفت عند باب غرفتك . استعيد الماضي الجميل . ومدينة الاحلام. متى تعود لتتم بناءها ! ! متى ؟

حبيبتك

ملحوظة : اكتب اليّ على شباك بوستة الفجاله . !

سنية

* * *

من أمين الى سنية

لندن في ١٥ سبتمبر سنة ١٩٢٨

حبيبتي سنية

أكتب اليك والفرح يملك على مشاعري . واني لواثق ان الخبر الذي ساقصه عليك سيجعلك ترقصين من السرور . لقد نجحت . واقبل على عميد الكلية يهنئني فقد جاء اسمي في قائمة الشرف

انا عائد ياسنية . عائد بعد مضى أربع سنوات لا اعلم كيف صبرت على قضائها بعيداً عنكم ؟

اطوى البحر والبر بالفكر اليك . واقبلك طويلا

حبيبك

أمين

من سنية الى أمين

٢ اكتوبر سنة ١٩٢٨

حبيبي امين.

استلمت خطابك الاخير من بوستة الفجالة . وقرأته كثيرا وقبلته مراراً . دامعة

العين شديدة الشوق اليك . الدنيا فراغ شنيع بغيرك والايام لا معنى لها . عد للتي تحبك وتنتظرك .

(ملحوظة) اعذر اختصاري هذه المرة فاني لشدة الفرح بك لا ادري ماذا أكتب.

* * *

في يوم ممطر كانت باخرة تقترب الى الشاطيء في ميناء الاسكندرية ووقف المنتظرون يترقبون العائدين . ويلوحون بمناديلهم . واقتربت الباخرة ببطء . ثم وضع السلم . وصعد ضابط الميناء ورجاله ثم سمح للركاب بالنزول . فاسرع من بينهم شاب نعرفه . يلبس قبعة ويحمل نظارة نزل السلم بسرعة . وتلفت هنا وهناك فناداه الشخص الوحيد الذي ينتظره

— امين !

— ابي !

وكان عناق رائع حار ودموع . وبعد ان تم تفتيش الحقائب . اقلتها عربة الى القطار المسافر الى القاهرة . وفي القطار علم امين ان امه مريضة بالروماتزم :

— مش قادره يابني وانا كمان . الربو تاعبني قوي ومنذ اسبوعين كان عندي ورم في الرجلين والحكيم امرني بالراحة ومنعني عن اللحوم والملح وكان جيراننا عائلة شكري بك يواسوننا ولكن الحالة ضاقت بهم فعزلوا الى منزل ارخص

تخفق قلب امين واحس شيئاً ثقيلا ينحدر في صدره

— وزارونا مرتين بعدها . والشقه والله فاضية لغاية دلوقتي . وانتقل الحديث إلى إشياء أخرى . وبلغا القاهرة ثم المنزل ووجد امين الدور الارضي خاليا . فاحس بفراغ كفراغ القابر . وكانت والدته في فراشها . وقد اقعدها المرض . وشحب لونها. ولكن الأمل في لقاء ابنها . جعل لعينيها بريقاً غريباً من الحياة . وكأن قوة غير عادية.

دبت فيها وهى تنتظره . ثم وهي تضمه . ثم وهى تبكي !

وأما غرفته في السطح فلم يجد عليها شيء . ولكن حين فتحها هب منها عبق الذكرى . والقسم الذاهب . والمدينة السحرية

في صباح اليوم التالى اخذ يبحث ويسأل عن منزل شكري بك الجديد . فلم يهتد وذهب الى بوستة الفجالة . وكان قد ارسل خطابا اليها كعادته قديما . فلم يأت احد لاستلامه . ولم يعلم من أمرهم غير ان الفاقة الحت عليهم . وهنا انقطع خيط البحث

وذات صباح كان بمديرية الجيزة لامر يخصه . فمر بحديقة الحيوانات وخطر له أن يدخل .

جلس على مقعد تجاه القرود ، خلف شجرة متوارية بعض الشيء . فمرت سيدة بادنة « بملاية لف » ومعها طفلان وخلفهم رجل ، وكان الرجل ضخما طويلا ، وله سوالف كريهة وفي فمه لبانة .

فذعر وأحس بيد تقبض على حلقه وتنشب اظافرها فيه ، وهم أن يصيح ! فلم يستطع واراد ان يقوم فلم يقدر ، سنية الجميلة الرشيقة تلبس «ملايه لف» وتصبح بادنة، ويصير وجهها عاديا خشناً ، وتتزوج بمن ، بالشخص البغيض الكريه ، الذي خسف أنفه بالكرسى من اجلها

هم ان يقوم ثانيا ، وان يحتج ، فوقف بينه وبينهم شبح ، وصرخ فى وجهه. قف فانا الذي اذللت هذه المرأة . وما زلت اطحنها . وأمشى بها من حاجة الى حاجة حتى تزوجت غيرك . . . . . والخطابات أيها خدعتك لصالحك . . . الا تعرفنى

فصاح أمين . اجل أعرفك أيها الفقر . وهذه آثار اظافرك فى عنقي

وطاطأ رأسه وقد غفر للحبيبة المسكينة بينما الموكب العائلي يسير ثم ثارت عاصفة من الغبار حجبت عن عينه الى الأبد مدينة الأحلام



ولن الاديب

ولز الأديب

محاضرة الدكتور ابراهيم ناجي في جمعية الشبان المسيحية

أحدثكم الليلة عن ولز الأديب ، أي أحدثكم عن عقل جبار ممتاز قليل النظير فى تاريخ العقول الانسانية ! أحدثكم عن عقل أحاط بالماضى والحاضر وتغلغل فى أعماق المستقبل . أحدثكم عن ذهن عجيب اؤكد لكم أني لو أردت أن الخص بعض ما أنتجه لما كفتنى عشرات المحاضرات . واني لحائر حقاً الليلة في أي النواحي أتكلم ؟ أفي القصة وهو فيها قد أتى بالعجب العجاب ؟ أم في التاريخ والطريقة التى ابتدعها في كتابته ، وهو أول من تكلم في العالم كاسرة واحدة . . . لا كأمم منفصلة وطوائف مستقلة ! أم في علم الحياة ، وقد اشترك مع العالم الشهير جوليان هكسلي حفيد هكسلي الكبير ، في اخراج كتاب يعد من المراجع الشاملة الخالدة ؟ أم أتناول آراءه في علم الاجتماع وهو ميدانه الذي لا يجاريه فيه كاتب ولا عالم

ان ولز الأديب هو الذي يمثل الانسان والانسانية معاً بكل ما في الكلمتين من معنى . يمثل الانسان لأن التعريف الكامل للانسان هو أنه مخلوق يتميز بادمان النظر في الحاضر والماضى والمستقبل ، وهو يمثل الانسانية لانه وقف حياته على الدعوة للأخاء العام ، في خلق أسرة واحدة من أسر متنابذة متطاحنة تخيم على آفاقها دائماً أشباح الحروب والويلات

﴿ ميلاده ﴾ ولد ولز في مقاطعة كنت بانجلترا سنة ١٨٦٦ .... فهو إذن قد قارب السبعين . ولكنهُ عمر حافل بكل ماهو جليل وعظيم . هو الآن في الشيخوخة ولكنهُ لايزال في عزم الشباب الحار المتوثب . فقد أخرج أخيراً كتاباً ضخماً تناول فيهِ الكلام في سعادة العلم وهنائهِ وثروتهِ ولم يكد يظهر حتى نشر رواية جديدة Bulpington of Blup . . . . حصل ولز على شهادة B. Sc في العلم في سن باكر . ثم اضطرتهُ أحوال الحياة ومطالبها القاسية أن يعمل في محل صانع أقمشة ثم صيدلياً ، ثم مدرساً حتى أصيب بنزيف رئويٍّ كاد يقضي على حياتهولكنهُ كان المنحة التي وجهت ولز الى ماخلق له حقاً . فانهُ اضطر محافظة على صحتهِ وحياتهِ أن يشتغل بالتأليف والصحافة . وكثيراً ما كانت محن كهذه من البواعث على ظهور عظمة مستترة وموهبة خبيئة ، وما أكثر الكوارث التي كانت سبباً في ارتفاع الشخصية الكبيرة التي لاتهن ولا تتراجع !

وجد ولز نفسه مضطراً بحكم حالتهِ الصحية أن يشتغل بالأدب . وهو يتميز عن كل معاصريهِ ويفوقهم — يتميز عن هاردي وكبلنغ وشو ومع أنهم من ناحية الفن الأدبي البحت يتفوقون عليهِ — فان نظرتهُ الى الحياة أرحب وعقله يمتد إلى آفاق مترامية تكاد تصل إلى الغيب .

هو رجل يغوص في لج الحياة الى اعمق اعماقه ، يغوص حيث يقف الآخرون على الشاطيء ، . . هو ذكاء اكثر منهُ شخصية هو شبه نبي يحمل رسالة للعالم يشرع للناس ويبين لهم اخطاءهم ويشير عليهم كيف يتلافونها ، .... ثم ينزل الى مستواهم ، فيجلس اليهم مسامراً منادماً كاحسن وأصفى ما يكون الندمان والخلان !

﴿ مميزات ادب ولز ﴾ ما قيمة ولز ؟ ولماذا هو خليق بالدرس وجدير بالتأمل ؟ ان اول ميزة له تضعهُ في القمة وتجعله نسيج وحده هي انهُ متصل اتصالاً وثيقاً

بالحياة الحقيقية ومندمج فيها اندماجاً تاماً ! وما هو الأدب ؟ الأدب انما هو تصوير للحياة وتسام بها ، وكل ادب يخرج عن هذه الدائرة فهو ادب مصطنع مزيّف ».

والميزة الثانية انهُ الاديب الذي يرمي الى غاية ، ويهتم بموضوعه ويفنى فيهِ ... ومع ذلك لا ينسى الوسيلة ، اي لا ينسى ان يكون فناناً يكتب باسلوب الاعجاز ويتخير لغة النجوم ! ولو انك جئت الى فنان كبروست أو كبلنغ وطلبت اليه ان يكتب فيما يكتب فيهِ ولز ، فى العمل والصناعة والتجارة والحواجز الجمركية ، ... وأن يؤلف قصصاً فى مثل هاته النواحي ... والله لتعثر وظهرت فضيحته

فولز هو الأديب الوحيد الذي وسّع دائرة القصص ونوّع الاغراض ، وتنقل فى شتى المواضيع ، وطرق ما لم يطرق من قبل ، فلم تعد القصة قاصرة على الحب ، بل تعدّت ذلك الى الموضوعات العلمية يبسّطها بقلمهِ الجميل ويقرّبها بذهنهِ الذكيّ ويبتدع فيها بخيالهِ الوثّاب فيأتى بأغرب التخيلات ومنها كثير سبق فيهِ العلم والاستنباط ، كل ذلك فى جوّ سحريّ متصل باللانهاية

والواقع انك اذا طرحت من أدب ولز ثلاثة أرباع ما يتميز بهِ من اتصاله الوثيق بالحياة ، وما كتبهُ فى العلم والاجتماع .... لبقي الربع الأخير كافياً لأن يعود على عدة مؤلفين بالشهرة ويغمرهم غمراً . لقد وصف الحياة والحب والموت ورسم الجمال والزهر بما لم يرسمه أحد . خذ مثلاً هذا الوصف البديع لحديقة يسمعك فيها لحن جوقةٍ من الأزهار

« لقد كانت الزهرات تتدفق وتتعانق كألحان الموسيقى العذبة . وترفع اليّ عيوناً كعيون الأطفال ، وسرى إلى أذنى غناء سحري من فم الزهر والأغصان والأوراق وفجأة سمعت من أعماقها اغرودة طائر وخفق جناح مرتاع »

على ان القيمة الكبرى فى أدب ولز هي رسالته للعالم . انهُ يريد أن يبلغك أمراً

ويحمل اليك نبأ ويهمه أن تعي ذلك النبأ ، وتدركه وتتبصر فيه . فسوف يقرأ الناس ولز في كل زمان ومكان ناظرين إلى المعنى الذي يريده والغرض الذي يرمي اليه ، والصورة التى يرسمها فيبدع فى رسمها وبهذا سيخلد ولز ويعيش أدبه على الأجيال بينما يموت أدب بعض الآخرين ويبلى . أدبه هو صورة واضحة جلية بارزة ، وأدب الآخرين اطار بديع الصنع مزركش منمّق أما الصورة فغامضة قلقة مبهمة وسهل جداً على الزمن أن يمحوها

على أن ولز فوق كل ذلك بعيد النظر الى المستقبل . فهو اختصاصي فى التنبؤ بما سيكون ومن قرأ كتبه التي كتبها قبل الحرب يعجب جد العجب لانهُ وصف ماسيحدث وصفاً جليّاً دقيقاً وهكذا يصيح كلما صحت نبوءته ألم « أقل لكم ». ولقد بلغ من صدقه ان اقترح بعض الظرفاء على الحكومة أن تعينه متنبيء العرش! مادامت تعين شاعر العرش Poet Laureate

على انه شخصياً يحب أن يذكره الناس كرجل توفر على درس الماضى . انهُ أعطى للتاريخ معنى غير ما كان له فهو الذي تكلم عن العالم كأسرة واحدة ، وهذه الوحدة هي أمنيته التي يريد أن تتحقق اليوم ! يريد أن يمحو الفوارق والأجناس ، ويمزق العصبيات ، ويقسم ان هذا هو الطريق الوحيد الى السلام !

على أن صدق حدسه عن المستقبل مبني على الفهم النادر للواقع ، حتى خاطبه أحد أدباء فرنسا قائلا :

« ان الذين يعرفونك يدعونك رجل أحلام . ليسوا بمخطئين . فأنك تحلم بسرعة ولكنك تفكر بشكل مخيف : فأنك تفهم كل شيء دفعة واحدة وأحاديثك السريعة المطبوعة بطابع العبقرية هي أضواء تخطف الأبصار ولكنك تخطف الأبصار بالفكر وهذا ما لم يتمّ لأحد سواك . أي كاتب وأديب كنت تغدو لو كنت أقل أفكاراً وذكاءً وعلماً ! »

لقد صار في زماننا من السهل اطلاق كلمة العبقرية على أي رجل يجيد الكتابة ولا يعني بملبسه ونظام حياته . فهذا الرجل الذي يبدع في وصف النساء والحرب والمدن والقسس وأهل الصين ورجال المصانع والمعامل والحوانيت ، والذي يرى ما في سهول أميركا وحقول أوربا ، ويرى ما تتجه اليه الانسانية ، وما يتدفق نحوه تيارها — الرجل الذي يكتب في كل هذا ماذا نسميه !؟

بعد هذه الالمامة التي أقدم بها الأديب ولز اليكم ، أجدكم في شوق لأن تعرفوا موجزاً عن آرائه وتحيطوا ببعض من قصصه . فأبدأ برأيه في حاضر الانسان ومستقبله ، ثم في العالم وحاضره ومستقبله ، ثم نختتم المحاضرة بموجز لبعض قصصه الرائعة

﴿ اهتمام ولز بالفرد ﴾ ان ولز يهتم بالفرد كما يهتم بالمجموع ، ولفرط ما انتقدو محص وغربل دعاه بعضهم متشائماً ، ولكنه ردّ عليهم ردّاً بليغاً في كتابه « اتجاه العالم » Where the World is Going تناول فيه مستقبل الفرد وبنى ملاحظاته على قواعد علمية ثابتة . وخلص منها الى ان حياة الفرد اليوم — مع الضيق الشامل والازمات المتعاقبة — اسعد منها في اي عصر من العصور الماضية . وبيّن ان الانسان يتطور تطوراً بيولوجيّا في السنين الاخيرة غير ملحوظٍ للذين لا يدققون ولا يبحثون . للذين يعتقدون ان الطبيعة الانسانية ثابتة على ممر العصور ! ونندد بالذين يدعون الانسان للرجوع الى الوراء ، الى حضن الطبيعة ، الى ثدي الام الطبيعي ! اما من جهة التطور البيولوجي في الفرد ، فنقرر اولاً ان الاحصائيات الجديدة في العالم المتمدن دلّت على ان طول الحياة الانسانية في ربع القرن الأخير قد زاد نحو اثني عشر عاماً في المتوسط ولا يهمنا من هذا أن تطول الحياة الى السادسة والخمسين بعد ان كان المتوسط يقف عند ٤٤ وانما يهمنا ان الطفل يمكنه أن يعيش أربعة أعوام مقابل كل ثلاثة كان يعيشها في

الماضي ، وإذن يمكن للطفل في البيئات المتمدنة في المستقبل أن يبلغ المراهقة بسلام ، ولنتذكر ان احصائيات المواليد هي خمسون لكل الف ، وان ٣٠ من هؤلاء الخمسين يموتون في سن الطفولة أو المراهقة . والنقطة الثانية في التطور البيولوجي ان الحياة الانسانية كانت قديماً حياةً جنسية تناسلية محضة . لم يكن امام الرجل غير ان ينشيء عائلة وينجب نسلاً . لم يكن امامه غير ان ينشيء العائلة ويشقى لها ويحمل اعباءها ، يفرح بالمولود ، ويبكي على الميت ويدفنه ، ثم يبدأ من جديد . تلك حياة الهرة الخصبة الانتاج . ولكن التناسل اليوم ليس الكل في الكل ، بل تسمعون صيحة تدوي في كل أرجاء العالم ، تحض على تحديد النسل . وحين يتكلم ولز عن السلام في العالم ، فيدعو الى محو الفوارق . والاجناس ، وتغيير الحكومات ، يعود الى موضوع تحديد النسل ، ويؤكد أنه لاسلام للعالم بغير العناية بهذه المسألة الخطيرة

لم تعد العائلة هي الكل في الكل ، بل أصبحت دوراً خاصاً في دائرة أوسع ، تتخطاها الحياة الانسانية وتتجاوزها . لقد كان الرجل يبكر في تكوين العائلة، وينهكه القيام بكل ماتقتضيه ثم يتهدم ويعطب بسرعة . تسقط اسنانه ويكلّ بصره ويذوي ويمضي الى القبر . تلك كانت القصة كلها . أما اليوم فماذا نرى ؟ نحن في حال جديدة. الرجل لايبكر الى الزواج كما كان يصنع قبلاً ، وفي حياته أمور غير الأمور الجنسية والرغبة الجامحة . واذا بلغ المشيب استعان بالطب والأطباء على الضعف والخور

والواقع ان هؤلاء امكنهم بكل يقين ان يعينوه على ان يكون في مشيبه في حالة لا بأس بها من النشاط والصحة ، واذن فالذي هو حادث والذي ينتظر ان يكون في المستقبل انه بدلاً من ان يبدأ الرجل في تكوين العائلة وحمل مسئولياتها والقيام عليها وهو في سن غض ، ثم يذبل في سن مبكر بعد أن تنتهك قواه وتتحطم من دون أن يجد حيلة في الهدم وعجز المشيب ستكون الحال أن يأخذ الرجل — وقد أخذ فعلا —

في تكوين العائلة في سن مناسب ، ولن يحصر قواه التناسلية في الانجاب ، واذا شاخ وجد من أطباء الأسنان والعيون ، والأطباء الذين همهم اعادة النشاط والشباب بواسطة العلاج بالغدد ، سيجد من كل هؤلاء من يصد عنه العطب السريع والذبول المهدد ، ... اذن فنحن سنترك حياةً منهوكة بها شبه حمى الى حياةٍ أكثر استقراراً وأوفر نضجاً ، الى عمرٍ أطول وأشدّ حيوية ونشاطاً

هذا فيما يختص بالتطور البيولوجي للفرد ، اما فيما يختص بسعادة الفرد فان ولز أشد تفاؤلاً . نعم ان الفرد اليوم أسعد منهُ في أي وقت آخر ، من بدء حياة الانسان على الأرض الى يومنا هذا . هو أسعد رغم كل القوي التي تعترض هناءتهُ وتعوق تطوره ، وهذه القوى موجودة حقاً ، وكثيرة . يقول المتشاءمون اننا شذذنا عن حضن الام الطبيعة فعوقبنا ولقينا جزاءنا ، وهو قول منقوض من أساسه ! الام الطبيعة تحلمون بها حينما تتفرجون على الشلال العظيم والجبل المنيف والصخر الأشم ! تفرحون بها وتتخيلونها في الربيع الزاهر والنجم المتألق والقبة الساحرة ، ولكن تعالوا اليها حيث تتجمع المخلوقات ، تعالوا اليها في الغابة ، هي قسوة وفوضى . هي طراد وشهوة هي جوع وخوف . هي كمين وشرك . هي كلمة القتل تهمس في الأدواح . وتنتقل مع العاصفة ، وتتردد في الأدغال ، ان اهنأ مايتمتع به الحيوان هو ضعف الذاكرة وقصر البصر ، واهنأ مايسيطر عليه الغريزة الجنسية ، وما الغريزة الجنسية غير عذاب وقلق . غير لذة مخيمة يختلط بها خوف ويظللها كغمام قاتم

هذه هي الحياة في الطبيعة ، عمل مفكك غامض حتى جاء الانسان فوصله وجمعه واحكم نسجه .

ثم ان أولئك الذين ينادون بالرجوع الى الطبيعة بغية الصحة ، يحسبون ان الحيوان معافى من العلل . ولو أنهم قرأوا التاريخ الطبيعي لعلموا أن الأمراض جميعها كانت

متفشية تفشياً مريعاً . فان صيادي الفيلة يقتفونها بواسطة الأصوات التى تحدثها امعاؤها من كثرة الغازات . وحياة البر ليست الا سلسلة من جوع فظيع الى شبع بلا راحة ، وهل كان الانسان الأول غير مخلوقٍ شبيه بهؤلاء ! مخلوق يتحكم فيه الجوع والخوف والغريزة الغشيمة ... والذين يقرأون عن التطور يعلمون أن أغلب العظام التى تركها الانسان الأول هي عظام مريضة

والواقع أنك لاتمكنك أن تضع أصبعك على أي عصر من عصور التاريخ مهما كان زاهياً جليلاً لتقول ان الفرد هنا كان اسعد من الفرد فى عصره هذا ، حتى الكتّاب الى عهد قريب ما كان يعنيهم الفرد وقليل جدا منهم من عني بوصف حياته اليومية . . . والذي اهتم بتصوير عيشة الفرد رسمه منغمساً في الجهل والمرض والظلمات

وفي ازهى عصور التاريخ — سواء عهد الرومان أو المصريين — كان الفرد مسخراً • وما الاهرام ، وما المشيّدات الرومانية الفخمة الا بيد الفرد المستعبد المسكين المرهق

على انه في منتصف القرن التاسع عشر فقط ، وعلى أثر المخترعات العلمية ، وعلى أثر التطور والتقدم الحديث في المعرفة ، اخذ يطلع على العالم فجر جديد ، فجر يبشر بزوال تسخير الفرد وارهاقه . فأخذ يعرف طعم الراحة ، وزال الرق وتحسنت الصحة العامة وقلت الوفيات

وعلى رغم العوائق التي تعترض تقدم الانسانية كالكتلة التي سنبينها فيما بعد ، على الرغم من كل هذا فان الفرد ارغد حالاً ، وسيطرد الرحاء والرغد في المستقبل . ثم يصيح ولز : اذن فاعلموا اني متفائل ، أرى الفجر يقترب وارى البشائر في حواشي الافق !

﴿ ولز والعالم ﴾ علمتم رأي ولز في مستقبل الفرد ، وقد تبين لكم عمق بصره وحدة ذكائه

أما في ما يختص بآرائه في العالم فهي اعظم شأناً واكثر جدة وطرافة ، ومنها تتبينون اموراً لفّها المضللون في أثواب من الزور ، وطلوها بطلاء كاذب ، فاذا اردتم ان تماشوا العصر وتقفوا على دخائله ، اذا اردتم ان تعلموا شيئاً عن حكومات العصر ، وعيوبه ومن أين نشأت . . . وعن النظام المالي ، وعن شبح الحروب المهددة للعالم ، اذا اردتم ان تعرفوا ذلك بوضوح فعليكم بولز . وقد قال احد كبار ادبائنا انه لم يفهم الاشتراكية الاّ بعد ان قرأ كتاب ولز « عوالم جديدة محل عوالم قديمة » New Worlds for Old . وقد اجتهدت ان اغترف لكم من البحر الزاخر الغني بالدرر فعذراً اذا قصرت فقد اخذت على عاتقي مهمة تنوء بها الهمم

نحن في عصر الديمقراطية • والديمقراطية متأصلة في نفس الانسان من اول نشوئه ، ولكنها لم تأخذ في سبيل التحقيق الا في القرن السادس عشر • في ذلك العهد بذرت بذورها ، وفي العصور التالية نبتت ونمت ، وفي عصرنا ازدهرت ، وليست فكرة الديمقراطية فكرة سياسية فقط بل هي تتناول الأدب والفن والموسيقى

ماذا نعني بالديمقراطية ؟ الواقع ان اغلب الناس حتى المفكرين منهم يلتبس عليهم ادراك معناها الحقيقي ، وكيف هبطت الينا ، ومكانتها اليوم • ان الديمقراطية ترمي الى غايتين

(١) كل الناس متساوون تحت عرش الله

(٢) كل الناس متساوون في نظر القانون

ومعنى هذين بكل وضوح انهيار النظم البالية المتحكمة ، وتحدي الاستئثار والسلطة ، ومعنى هذين أيضاً انفصال الفرد عن كتلة المجموع ، وتحرره منها وشعوره بذاتيته ، والاعتزاز بنفسه كشخص حرّ له ان يحب مايشاء ويصنع مايشاء

امافي السياسة فتعلمون ان الحكم اصبح دستورياً ، معتمداً على اصوات الافراد الانتخابية

أما في الأدب فبعد ان كانت الرواية تعنى بالمجموع . وتتكلم عن الملوك والامراء والابطال والديانات وما الى ذلك . اصبحت تعنى بخلق الفرد وحياته وتحلل ميوله واهواءه ومعيشته . ولا شك ان اكثركم قرأ رواية « دون كيشوت » الشهيرة ففيها بوادر السخرية بالارستقراطية والتمرد عليها ، وان في انتصار الطاحونة ، التي هي ملك للعامل البسيط ، على البطل المدرع ، لرمزاً جديراً بالتبصر . وخذوا مثلاً روايات الادباء جبابرة القرن التاسع عشر كزولا وبلزاك ودكنز وترجنيف تجدونهم يصورون العالم كسوق كبير فيه الرائح والغادي كل يعمل لحاجته ، حراً منفصلاً وهو مع ذلك متصل بالانسانية الكبيرة اتصالاً لا يغمر شخصيته ولا يمحوها

وكذلك في الفنون : فقد كان الفن يعنى بتنسيق عمارة ضخمة ، أو النقش في هيكل ديني او خدمة نزعة سياسية ، وكانت الموسيقى مقتصرة على ألحان دينية ، او ألحان تطرب الملوك وتستثير همم ابطالهم وجنودهم في ميادين الحرب والقتال . لقد تغير كل ذلك واصبح كل فنان يعمل كما يهوى ... حرّاً طليقاً كالطائر الباسط جناحيه حيث تستهويه اجواز الفضاء !

إذن ... فان الديمقراطية هي انفصال . هي تجزء ، هي انطلاق ذرات كانت ثابتة في هيكل السياسة والآداب والفنون . . ويجوز لنا اذن ان نسميها الديمقراطية التحليلية . . ومن المتناقضات العجيبة ان يقابلها في نواح اخرى نظام تركيبي ، وبخاصة في العلوم . فلقد كانت الحقائق العلمية منفصلة لا تضامّ بينها فأصبحت هذه الحقائق خاضعة لتجارب تحققها وتنظم عقدها حبة لحبة

قلنا ان الفرد قد انفصل عن كتلة المجموع واصبح معتزّا بنفسه ، ثائراً على التقاليد القديمة فماذا جرّ عليه اعتداده بنفسه ؟ جرّ عليه امرين ، الامر الاول نضاله في حدود بلاده ضد ما بقي فيها من آثار التحكم والقوة ، ونضال خارج بلاده معتزّا

بما يسميه بالعصبية القومية ، فخوراً بعلمه ، مدافعاً عن وطنه بلا حساب ... ولـكن من العجيب انه وهو فى هذا الانفصال والتحرر يتطلع الى المشروعات الاقتصادية المركبة الضخمة التى تحتاج الى جهود متجمعة اي ان الديمقراطية التحليلية تؤدي عن غير قصد الى نظام اقتصادي مركب ، ... وهنا يصطدم الفرد من جديد بالرءوس التى تريد أن تتزعم ، وتدير العمل وتتحكم فيه ، ومن هنا نشأت فكرة الاشتراكية فما الاشتراكية مهما تختلف الآراء فيها الا نظام يراد به بث الديمقراطية فى النظام الاقتصادي ، كما بثت في النظام السياسى ، أو بعبارة أخرى أن ينقل الحكم فى عالم الاقتصاد من رأس يتحكم فيها ويديرها إلى جماعات من نفس العمال ، أو من قوم ينتخبهم العمال . فالديمقراطية التحليلية أمر جميل جليل ولـكنه يمتد ويتشعب فى غير حدود ولا نظام . على أن شعور الفرد بنفسه وكرامته وقوميته في كل أمـة جعل شبح الحرب قائماً ينذر ويهـدد ، وان كل فرد فى سبيل المغامرة المالية لنفسه جعل النظام المالي مضطرباً قلقا والاصطدام بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال ، جعل النظام الاقتصادي متداعيا على وشك الانهيـار ، وتلك هي المشاكل الثلاثة التى تواجه العالم الآن . وهي كما تبين لـكم أيها السادة منشؤها ديمقراطية تحليلية ، تتشعب وتمتد وتطغى بلا حد ولا قوام

بعد هذا التفسير المنطقي المعقول للمشاكل الحاضرة نريد أن نسمع من ولز طريقته فى العلاج . ما دام قد شخص الداء ، يقول هذا الطبيب المشخص لعلل العالم اننـا لايمكننا بالطبع بحال من الأحوال الرجوع الى الأساليب القديمة والنظم العتيقة ، ولـكننا فى حاجة إلى اصلاح هذه الديمقراطية التحليلية ، وايجاد مايسمى بالديمقراطية التركيبية Synthetic Democracy

ان الحـكومات الحاضرة فى نظر ولز غير صالحة ، ان الزعماء الذين يصلون الى

منصات الحكم معتمدين على صوت الفرد ، جلّ همهم أن يرضوه ، وأن يصلوا . . .
وهم لا يصنعون شيئاً يغنون به سلام العالم ، انما هم يجتمعون ويتكلمون ويؤدبون المآدب
ولا يقومون بعمل جديّ ٠ فولز غاضب على الساسة ، غاضب حتى على امته ، غاضب
على الاستعمار ، يود أن يفتح عينه ويغمضها فيرى مقاعد الحكم قد خلت من هؤلاء ،
وجلس عليها قوم ينظرون بعينهم لا الى أمتهم فقط بل الى العالم كاسرة ، ولا يتعصبون
لمواطنيهم وذوي رحمهم بل يتعصبون للاخاء العام ويعملون لمحو الفوارق وهدم
الحواجز الكاذبة التى تفصل بين أمة وأخرى وبين شعب وآخر

يريد أن يرى فى كراسي الحكم قوماً متطوعين ، مستعدين لأن يموتوا فى سبيل
اغراضهم وما اغراضهم هذه غير ان تنتهي الحروب ، وتخلق وحدة اقتصادية كبرى
تشمل الدنيا ، ووحدة مالية تحفظ العالم من الخراب والدمار ! هذا مايقصد ولز
بالديمقراطية التركيبية ، فى كتابه يوتوبيا الجديدة ؛ التى يتخيل فيها المدينة الكاملة
والحكومه المثالية ٠٠٠ يريد تعاضداً وتسانداً فى الحكم والاقتصاد والمال ٠٠٠ ويقول
انه ليس يحلم وانه يرى فى الأفق طلائع مقبلة تميزها وتؤكد وجودها وان حجبها عنا
الغبار الذي تثيره مواكبها

* * *

هذه بعض آراء ولز وتنبؤاته ألا تجدونه جديراً بالاجلال ، جديراً بأن تقرأوه
وتلتفتوا اليه ؟

﴿ ولز القصصي ﴾ الأديب ولز قاص بارع ، كتب فى جميع الأغراض وتناول
كل الشؤون ، وجوّد فى القصة القصيرة كما أبدع فى القصه الطويلة ، وكل قصصه جيد
وممتع ، بحيث يحار الانسان ماذا يلخص وماذا يدع ! وقد أجمع النقاد على أن أحسن
قصصه القصيرة هي أقصة « صانع المعجزات » وقد انتخبها هو بنفسه عندما دعى لأن

يختار أحسن قصصه ، ولكني وجدت قصة « قلب المس وينشلزيا » أجمل وأظرف وسأبدأ بتلخيصها لكم ...

المس وينشلزيا فتاة جميلة راقية تدرس في احدى الجامعات اصطحبت صديقتين لها في سياحة الى روما . ويفهم من سياق القصة ان الفتاة تفوق صديقتيها جمالاً وثقافةً ومالاً وجاهاً . يقطعن الطريق في دعابات وحوار ، فكلما رأين شيئاً ضحكن وسخرن في مرح وجذل . الى أن وقف القطار ساعة في محطة من المحطات فصاح صائح يدعو شخصاً لم يرينهُ باسم غريب ضحكن له واستغرقن في الضحك: هذا الاسم بالانجليزية هو Snooks يقابله عندنا جُعْلص مثلاً فتضاحكن وتخيلت كل واحدة انها حبيبة أو زوجة لشخص يدعى بهذا الاسم وكلما افتكرن في هذا أغرقنَ في الضحك . حتى بلغن روما . فصرن يتنقلن بين آثارها وهياكلها العظيمة ، ففي اثناء طوافهن تعرفن الى شاب مثقف جميل وسيم صار يطلعهن على ما لا يعرفن ثم ينصرف في أدب ووقار تام . وصار الحظ يجمعهن بهِ مراراً فتعلقت بهِ وينشلزيا ، ورأت انهُ يبادلها عطفها ... حتى خلت بهِ مرة وأخذا يستعدان لحديث اعمق ، ويهمان بان يبوحا باسرار دفينة ، فاذا بصاحب له يناديه عن بعد « انت هنا ياجُعْلص » فبهتت الفتاة . . . وكانما اسدل بينها وبينهُ حجاب كثيف وتنكرت له من ذلك الوقت ، تنكرت لاسمه الذي لم يعجبها ... ولكنها راحت تفشي سرها لاحدى صديقتيها : وتقول لها اذا عدنا الى وطننا فاتصلي انتِ بهِ واكتبي اليّ . . . وفي انكلترا تتصل بهِ « فاني ».. و « فاني » هذه فتاة ضخمة لا تصلح لغير الطبخ والكيّ ، اي لا تصلح لفتى مثقف مهذب جميل

المهم انها اتصلت بصاحبنا . . . ولكنها لم تكتب الى صديقتها عنهُ غير كلمات قليلة لا تشفي غليلاً ... الى ان ارسلت اليها خطاباً ذات يوم تخبرها فيهِ انها تزوجت

« جُـعْـلص » . . . وعقّبت انه مرضاة لخاطرها قد غيّـر اسمهُ ... فانهارت آمال وينشلزيا أولاً لأن صديقها خانها ، وثانياً لأن العقبة التي تخيلتها كبيرة : عقبة الاسم كانت غاية في البساطة ، وثالثاً لأن فاني هي الوحيدة التي لاتصلح زوجة لذلك الرجل

على انها تعالت بالمحال ، وتوقعت أن يحصل بينهما خلاف ، فلم يحدث ، فزارتهما في منزلهما فرأت مازادها حسرة وألماً . وجدت الحبيب المثقف الرقيق قد سمن واستكرش ، كلّمته في الأدب فلم يذكر حرفاً ، وفي الفن فلم يفتح فمه ، فحادثتهُ في الأكل فاندفع كالسيل ...!

﴿ صانع المعجزات ﴾ كان المستر فوذرنجاي حتى الثلاثين من عمره ممن لا يؤمنون بالمعجزات . وهو صغير الجسم شـديد سواد العينين يشتغل كاتباً في احـد مصانع الدراجات

فذات ليلة اجتمع بصاحب له في بار لونج دراجون وما لبثت المناقشة ان دارت بين الصديقين حول امكان حدوث المعجزات او استحالتهِ ، فصاحبنا فوذرنجاي متعنت لا يقبل ان يستمع الي مثل هـذه الخرافات ، وصاحبه شديد الايمان بها . وثارت المناقشة حتى صاح فوذرنجاي مشيراً الى المصباح الـكهربائي الذي ينير الحانة : أتظنني لو حصرت ارادتي وأشرت الى المصباح بقوة الارادة وأمرته قائلاً « انقلب ايها المصباح رأساً على عقب على أن تظل مضيئاً » أتتحقق مثل هذه المعجزة . فلم يكد ينتهي من قوله حتى انفصل سلك المصباح المعلق من مكانه في السقف . وانقلب كما أمره . أما هو فوقف باهتاً . واختبأت فتاة الحانة مرعوبة . وفرّ بعض الزبائن ولم يطل هذا المنظر غير ثوان صاح بعدها فوذرنجاي « النجدة النجدة ! ان قواي لا تستطيع ان توقف المصباح على هذه الحال طويلاً ! اني اشعر بالعجز » . فما لبث المصباح ان وقع محطماً وساد الـكلّ ظلام دامس ! واخذ الجلوس يلومونه لوماً شديداً على جنونه هذا

واقترحوا عليه أن يسرع بالانصراف ففعل ! ووصل إلى حيث يسكن مفكراً مهموماً لايصدق ماحدث . فارتمى على فراشه بملابسه يفكر . وخطر له من جديد أن يجرب قوته الخارقة فى الشمعة المضاءة . فحصر ارادته وقال لها ارتفعي من مكانك وانقلبي وظلي مضيئة ... فكان فى الحال ما أراد . ثم أمرها بالنزول فسقطت مشعلة وأحرقت الغطاء . . .

فعرف ان الله حباه قوة غير عادية ... وأخذ يجرب من جديد . طاب أن يهبط عليه عود ثقاب . فرأى بصيصاً من الضوء وعود ثقاب يقع فى قبضة يده. وشعر بالظمأ فأمر بورقة أن تصير كأس ماء ، فكان له ما أراد ، ثم خلق على هذه الطريقة مشطاً ثم فرشة أسنان ...

وأراد أن ينام من دون أن ينفق جهداً ، فأمر ملابسه بترك بدنه ،وبحذائه نخلع. وأمر لنفسه بقميص من الحرير ثم أمر نفسه بالنوم العميق والاستيقاظ فى ساعة حددها

وذهب الى عمله فى اليوم التالي مضطرباً كمن يكتم سراً ويحمل أمراً عظيماً ، وانصرف فى المساء ، ومشى في شارع قليل الضوء مفكراً يضرب بعصاه الأرض نخطر له فجأة أن يصنع معها ماصنع موسى بعصاته ... ان يقلبها حية تسعى . ولكنه خشى العاقبة . فأمرها أن تستحيل « زهرية » فاستحالت ، وان تعود عصا كما كانت فلم ترفض له طلباً ، غير انه مالبث ان سمع ضجة ورجلاً من المارة يتقدم اليه فى الظلام سابّا شاتماً لأن العصا فى حركتها أصابت ذقنه فأدمتها . . . وجاء على الضجة الكونستابل رونش ولامه كثيراً على اعماله الجنونية وذكره بفصل الحانة ليلة امس ، وانه كان حاضراً كل شيء . وما زال يسبه حتى ضاق به صاحبنا ذرعاً فصاح به « أذهب الى جهنم » Go to Hell . فلم يعد هناك كونستابل ما . ذهب رونش ، راح حقيقة الى جهنم ! فانزعج فوذرنجاي وانبه ضميره على ارسال

الـكونستابل الى جهنم ، وشاء تخفيف العقاب عنه فامره بالذهاب الى سان فرنسيسكو

وذهب في اليوم التالي الى الـكنيسة . وخطر له ان يخبر راعي الـكنيسة بما وهبه الله ، فانتظر حتى انتهت الصلاة ، وزاره في بيته ، وباح له بكل شيء ، واسر اليه ندمه على ما فعله بالـكونستابل رونش ، وانه بعد ان نقله من الجحيم الى سان فرنسيسكو لا يزال ضميره يؤنبه اذ ماذا يصنع الـكونستابل المسكين في ذلك البلد النائي السحيق. فطمأنه القسيس واخبره ان الله اختاره والله يختار ما يشـاء ، وطلب اليه ان يعرض « العابه » . فنظر صاحبنا الى علبة التبغ قائلاً كوني وعاءً مملوءًا بزهر البنفسج فـكانت ، ثم قال كوني صحن سمك فـكانت ، .. وهكذا . فطرب القسيس وآمن ، ودعاه للعشاء معه .. فشكا القسيس اليه كسل الخادمة ، فقال فورذنجاي انك سترى عجباً . وامرها امراً خفيا ان تقلع عن الـكسل ، فسمعوا في الحال صوت الاطباق والملاعق وحركة جيئة وذهاب ونشاطاً غير معتاد ، . . . لقد استيقظت الخادمة من نومها العميق ، وهي تهيء لهم العشاء في اهتمام لم يرَ القسيس ولا أحد من قبل

وطاب للقسيس ان يستغل هذه القوة الخارقة في اصلاح الناس ، فـكان يدور بصانع المعجزات في الحانات وبؤر الفساد . فاستحالت الخمور ماء ، وانمحت الجرائم ، وصلح الاشرار ، وكثر الابرار

وذات ليلة سهر فورذنجاي مع القسيس حتى الساعة الثالثة صباحاً ، فخطر للقسيس ان يجرب صاحبه من جديد فاشار اليه ان يأمر الزمن بالوقوف والارض بان لا تدور فوقف واستجمع كل عزمه وصاح « أيتهـا الارض قفي عن الدوران » . فوقفت الارض كلها ووجد الرجل نفسه يطير في الفضاء بسرعة مليونين ميل في الثانية ... فحاول ان يستجمع قواه ويأمرُ بالعودة فخانته قوته . فشحذ عزمه وامر الـكرة الارضية ان تعود الى الدوران وان يعود هو الى الأرض سالماً

فدارت الكرة الارضية ، وعاد هو سالماً ، ولكن ماذا وجد ! وجد الزلازل في كل مكان ، والاعاصير تهب والمباني تتطاير والماء يتدفق . . . فجمع ارادته وقال « ياالله ! ياايتها القوة العظيمة ... ياجميع القوى السماوية والعالمية اعيدي الحال الي ما كانت عليه .. وخذي مني قوتي الخارقة مقابل ذلك . اعيديني عاجزاً وانقذي العالم » . فلم تتم صيحته حتى وجد نفسه جالساً في الحان . . . . والكأس العاشرة فى يده ... يناقش صاحبه في أمر المعجزات وينكر وجودها بتاتاً ... ويصيح كلاّ . انها كلام فارغ ... لايوجد معجزات

﴿ القصة الطويلة ﴾ أشهر قصص ولز الطويلة هي تونو بانجاي وكيبس واستيقاظ النائم وعالم وليم كليسولد ومكيافلي الجديد . ولكنني أختار قصته تونو بنجاي لانها شبيهة كل الشبه بما يحدث فى مصر ... مصر التى يكثر فيها العنبرول والكالفلويد ويثري فيها ثراءً فاحشاً أصحاب هذه العقاقير . وبينما يجوع أصحاب الضمائر ، يتمتع الدجالون بالرخاء واليسر ويمرحون فى أثواب النعمة

تونو بنجاي Tono Bungay اسم دواء اخترعه الصيدلي الحقير السمين بوندريفو . رنّ فى أذنهِ فجأة ... فهمس به فى أذن مساعده وابن خاله جورج .وصاح ألا تجده كصوت القنبلة هذا هو تركيبه ياجورج . انه مقوٍ للأعصاب . وهذه صورة الاعلان وسوف ننفق على الاذاعة عنه المال الذي يخصك من أبيك . لاتحتج بالضمير ياجورج ودعك من السفاسف ودعنى أعمل

وبعد ان كان دواءً مقوياً تفرع منه مسحوق للاسنان ،وآخر مانع لسقوط الشعر وقطرة ، وصابون ... وكذلك تدريجاً اختفت العناصر التى تكونه ...ومع ذلك سار مسير البرق وانهال المال ... وصار العم يزداد وجاهة وايماناً بذكائهِ وازداد كرشه الضخم تطبلاً وتكوراً وصار لفمهِ شكل أفواه العظماء ، اذا صح قول غالزورذي ان

أعيننا هي ما نحن أما الفم فهو مانصير اليه . وتعددت المشاريع وكبرت الشركة ... واتسع المعمل على لاشيء

وأخذ العم يبني قصراً ... وأخذ جورج يتحبب الى فتاة غنية تدعى بياتريس ، ومن يقرأ قصة الحب بينها وبين حبيبها يؤمن بأن ولز عالم نفسي من الطراز الأول : تقول له وقد خرجا إلى الغابة والمطر يسقط رذاذاً اني أحبك الآن لا لما فيك من مفاتن بل أحبك بأجمعك ، أحب فيك غرورك وحمقك ، أحب قطرات المطر على معطفك. ثم يوصلها إلى منزلها فتقول له تعال : ادخل اني أحبك الآن . ولكن الأبله يجيبها نعم ولكني مضطرّ إلى الذهاب ... فتغلق الباب غاضبة وهي تقول « اذن فاذهب . »

وكل من قرأ علم النفس الخاص بالمرأة يعلم أن المرأة غير مستعدة لأن تهب نفسها إلا في ساعة واحدة ترتمي فيها بين ذراعي حبيبها وقد فقدت كل وعي . وهذه الساعة يعرفها وينتظرها كل « دون جوان » خبير ، وتمر على الغر الأبله دون أن يلحظها

قلنا ان الثروة انهمرت كالسيل ، واستعملت فى المشاريع الجديدة ، أي فى نصيب جديد إلى أن حدث ذات يومٍ ان كان العم متعباً مريضاً وفى عينه أثر الدموع ، وعلى وجههِ ذلة ومسكنة . فسألهُ جورج عما بهِ . فأجاب لقد ذهب كل شيء ... ان الخراب والعار يهدداننا .. انهم يحققون معي ، ويحللون الأدوية ... ويسألونني عن الترخيص ، وليس لدي ترخيص . ثم يبكي كما يبكي الطفل وهما أمام القصر الذي يعلو ويتطاول

يهربان فى طيارة ويمرض العم وتشتد عليه الحال فى باريس . وهنا فصل من أقوى الفصول فى الأدب على الاطلاق ، فبينما أنت تعرف ان الرجل نصاب فاذا بك تشفق عليه وتجد الدمعة تترقرق فى عينيك ، وتؤمن بقوة ولز الأديب لانه يجعلك تشعر انك

لست أمام الرجل النصّاب يحتضر ، بل أمام الانسان بكل ضعفه وعيوبه وعجزه أمام المقادير والموت ، أمام الآمال التى تتجمع ثم تنهار ، وأمام العظمة التى تكاد تقبض عليها فاذا هي تتواري كالشبح ، وأخيراً امام الماء الذي نمضي اليه ظامئين فاذا هو سراب يلمع فى الصحراء

وختاماً أوجّه نظركم من جديد الى الأديب ولز فهو جدير حقّاً بأن تنفقوا فى درسهِ أوقاتكم



الليل

قصة معربة

للكاتب الايطالي

لويجي بيرا ندللو



الليـــل

إجتاز القطار محطة سالمونا فوجد « سلفسترو نولى ، نفسه منفردا فى مقصورة قذرة بالدرجة الثانية . فنظر نظرة أخيرة إلى مصباح الزيت الذي ينذر بالأنطفاء كلما اهتزت عربات القطار . وكان قد تعب من السفر الشاق نهارا بليلة . وود لو ينجو من الألم الذي تـكاثر عليه اذ يدنو رويدا رويدا من منفاه !

أبدا ..! أبدا ..! أبدا ..! هكذا كانت تقول العجلات إذ تصطدم ويرن صوت اصطدامها بانتظام . لا ! لن يعود أبدا ذلك العهد المرح ، عهـد الشباب . لن تعود ابدا اجتماعات الأصـدقاء تحت أقواس « تورين » لن يعود أبدا ذلك الجو الدافىء ، جو الصبا الناضر . لن يعود ذلك الحب المتوسل ، حب أمـه ، ولا البسمة الحنونة تشع من عين أبيه : ولـكن أمه ! أمه .! يافرط ما تغيرت فى سبع سنوات نأى طويلة لقد تقوس ظهرها وذبلت وذهبت أسنانها . ولـكن عينيها بقيتا على حالهما من القداسة والسحر والجمال : يالهـا من لذة إذ يطيل النظر الى أبيه وأمه ، وإذ ينتقل من غرفة الى غرفة بالمنزل القديم . الحق أن الحيـاة بكل ما فيها من بهجة لم تذهب عنه هو فقط ، بل ذهبت عنهما أيضاً . أخذها معه حين بارح المنزل ، ماذا صنع بها ؟ وأين

ذهبت ؟ لا ! لقد تركها وراءه بالمنزل فلما عاد لم يجدها . ثم لم يجدها ولم يجد لها عوضاً . وشعر فى قلبه ببرودة الموت :

وعلى هذه الصورة كان عائدا إلى بلدة « سانت أنجلو » بعد أن انتهت الأجازة التى اعطته اياها المدرسة التى كان يدرس الرسم بها سبع سنوات : شعر فى تلك البلدة بالوحدة والوحشة ، فتزوج ليسد ذلك الفراغ ، فقيد نفسه الى الأبد بتلك البلدة الجافة، وانتسب إلى الأبد إلى أهليهـا ذوى البلادة والخلق الضيق ، والشح ، والخمول . لقد تزوج لينجو من الوحدة ، فأذا به أكثر وحدة ، واذا به منفرد بأحساسه وتفكيره لا تشاطره فيها امرأته . واذا الحياة التى كان يأملها ويتوقعها قد صارت فى حيز الأحلام وولد له طفل ، فاذا به من يوم ميلاده غريب عنه بعيد الشبه ، كأنما هو ابن زوجته لا ابنه هو . وكم تمنى لو فارق ذلك المكان وقصد غيره ، اذن ربما كان ابنه يصير شبيها به ، أو تصير زوجته صالحة للرفقه وإذن ربما كان يخلق منزلا على هواه وعائلة كما يشتهي ، ولكن زوجته مع الأسف رفضت أن تنتقل حتى فى شهر العسل ، وحين عرض عليهـا أن يزورا أباه وأمه أبت ، وهكذا لصقت بأهلها لا تريد عنهم رحيلا !

وشاء القدر أن « يُسمّر » في ذلك المكان الموحش اللعين ، وأن يتألم حتى تعلوه قشرة من البلاهة والجمود ! كم كان يحب الموسيقى والفنون والمسرح ، ولا يتكلم إلا عنها ، فشاء القدر أن يظل ظامئا اليها ، كما هو ظامىء الى الماء العذب فى هذه البلدة التي يسقون فيها الماء من آنية يخزنونه فيها ! ياسوء هذا الماء الذي يشربه سخيف الطعم بالصدأ الذي يعلوه ، ولا يستطيع هضمه — . أن كان هذا وهما أو غير وهم فهو يعلم ان معدته تلفت إلى الأبد !

وتجمعت الدموع فى عينه وانتزع منديله يجفف دموعه وعرقه .

وأخيراً وقف القطار فى محطة « كاستلامارا » وكان على المسافر أن ينتظر فى هذه المحطة خمس ساعات ليصل إلى المحطة المجاورة فى عشرين دقيقه !

وكانت المحطة كبيرة مضاءة طول الليل ، وكان الأنسان يأمل أن يخفف عن نفسه فيها مرارة الانتظار والضجر الذين يستوليان على المسافر بالليل . ولكن وجوه النساء والرجال كان يعلوها الغبار والشحوب، وجوه القوم الذين انقطع ما بينهم وبين ماضيهم. وكان يبدو على أكثرهم القتام والملال ، فكأنما كانت قلوبهم تنقبض كلما رنت صفارة القطار وهو يجتاز السهول المظلمة ، ويندفع على القناطر ، ويقذف بنفسه فى النفق ، أكان هؤلاء المسافرون يعتقدون أنه لا راحة للناس حتى فى الليل ؟

شرب « نولى » فنجانا من القهوة بسرعة ، ثم قام من كرسيه ليخرج من الباب المقابل الى الشارع الممتد الى البحر ، المضاء بالمصابيح الكهربائية . لقد كان بحاجة لأن يفرج عن نفسه ويتنسم هواء البحر ... ولكن ناداه صوت فاجىء :

« أستاذ نولى » !

والتفت الأستاذ مندهشا ، فاذا به يرى سيدة هزيلة جد الهزال ، ولها عينان حزينتان متناهيتان في السحر والفتنة ، فى محاجر غائرة .

— أستاذ نولى !

— سيدتى ! آه . . . « سنيورا رونكى ! »

نعم أعرفك بلا شك ، أعرفك ياسنيورا

ولكن ماذا جاء بك الى هنا ؟

نعم ! هى زوجة زميل له فى التدريس ، زميل مات قريبا وعرف خبر وفاته من الصحف ، مات ذلك المسكين بعد ما جاهد جهاداً مرّا ليدخل المدارس العالية ، فما استقر قدمه بها حتى مات فجأة ! مات في شبابه ، وقال الناس ؟ لقد مات من فرط

غرامه بهذه الزوجه ، بهذه السيدة النحيلة التي كان يجرها وراءه جرا حينما ذهب . لقد كان رجلاً ضخماً ذا لحية هائلة ، وكان عنيفاً حاراً ..!

نعم ! هذه هي زوجته ، وقد ضمت منديلها المطرز بالسواد إلى شفتيها ، وهي تنظر اليه بعينين جازعتين ، وتشير برأسها اشارة الفجيعة . ورأى دمعتين تنحدران على وجنتيها ، فعرض عليها أن تصاحبه إلى جهة البحر ليتكلما بحرية أكثر . فما كادا يخطوان بضع خطوات ، حتى أخذ جسمها النحيل يهتز اهتزازاً عصبياً من فرعها إلى قدميها ؛ وانتابتها نوبة سرت من كتفيها ، إلى ذراعيها ، إلى كفيها الذابلتين .

— « نولي » ! « نولي » ! ... إستمع إليّ . لقد تركني وحيدة لا صديق لي ، وحيدة بأولادي الثلاثة . لقد كان رجلاً عاتياً دمر نفسه ودمر صحتي وحياتي .. دمر كل شيء ..!

وأخذت تنتفض ، ثم استطردت : لقد انتزعني من أهلي وقومي ، وكنت موضع حسدهم ، فكيف أعود الآن ؟ ألكي أعرض عليهم ما حل بي ؟ ماذا أصنع الآن ؟ إني عائدة اليوم من روما حيث ذهبت أطالب بالمال ، ولو لم أذهب ما أعطوني النقود القليلة التى استحقها جزاء تدريسه . لقد صرخت هناك وعلا صوتي بينهم حتى اعتقدوا أني مجنونة ، ونصحوني بالهدوء . من يدري ؟ ربما كانوا على حق فى ظنهم ... ان فى قلبي ألماً يقرضه بأنيابه ، ألماً لاينقطع .. وأشعر بشيء يحترق فى داخلي ويشع لهبه فى جسدي كله . وصاحت فجأة : ولكن أنت يانولي ! أنت لاتزال شاباً ..!

وبينما هي تسلك هذا المسلك في ذلك الطريق الموحش ، تحت ضوء المصابيح الخافته ، أمسكته بعنف من ثوبه ، وارتمت بين ذراعيه وهي تسحق قبعتها فى صدره وتدفن رأسها دفناً كأنما تريد أن تخترقه اختراقاً وتنفذ إلى صميمه ، وهي تتشنج وتزفر زفرة بعد أخرى . .!

فدهش الرجل وتراجع يريد أن يبعد عنها ، ولكنه كان يوقن أن هاته المرأة فى جنونها الحالي تصنع ما صنعته مع أي صديق تتوسم فيه الرحمة ،فأجاب قائلاً : الشجاعة ياسيدتي ..! ثم قال مداعباً : لقد قلت اني شاب .. كلا ،فقد اكتهلت ... ثم انى متزوج!

فتركته فجأة وهي تقول : تزوجت . . ؟ قال : من أربع سنوات ، ولي ولد ، وأسكن قريباً من هنا ، فى « سانت انجلو » !

فسألت : هل زوجتك من « تورين » ؟ قال : لا ، من هذه النواحي .

ووقف الاثنان تحت المصابيح ، ينظر الواحد إلى الآخر ويفهم روحه تمام الفهم!

فى ذلك الطريق الجهم ، وعلى خطوات من المنازل الهاجعة ،وجد كلّ نفسه بعيداً عن موطن حبه الأول ، ومقيداً إلى هذا المكان الذي دفعه اليه القدر القاسي ، وشعر كل منهما بالرحمة تتدفق من قلبه إلى قلب صاحبه ، ولكنها رحمة بدل أن تدنهما اغلقت كلا منهما فى سجن من الشقاء الذي لا عزاء فيه !

وسارا فى بطء وصمت حتى قاربا رمال البحر . وكان الليل تام الهدوء ، والنسيم رخيا ، وكان البحر نفسه متواريا فى الظلمة ، ولكنهما كانا يشعران به قلقا خافقا ، نابضا فى جوف ذلك الليل المدلهم ، وشاهدا شيئا مبهما أرجوانيا مربدا يهتز على سطح الماء ، ربما كان القمر مكتنفا بالضباب ! وامتدت الامواج المزبدة ثم تراجعت كألسنة صامتة ، أما الظلمة المنتشرة فوقها ، فقد طعنتها حراب النجوم ، وهى تزداد تألقا وتحاول ان تقول للأرض شيئا فى ذلك الحلك الخفى العصيب !

مشيا على الرمال المبتلة ، وكلما انطبعت أقدامهما على الرمال ، محتها أكف الموج ، ورأيا فى البعد شيئا أبيض تبيناه فاذا هو قارب صيد مقلوب .

جلسا ، والمرأة ناظرة بعينيها الى السماء ورأى الرجل على ضوء النجوم ، جبينها وسمه العذاب ، وجيدها خنقه الألم !

قالت : « نولى » ! ألا تزال تغنى ؟

أجاب : أنا ؟

قالت نعم أنت ! لا أزال أذكر صوتك فى الأيام الخالية .صوتاًعذباًحلواً شجياً، هل نسيت يانولي ؟

نعم يذكر ، لقد استثارت هذه المرأة ذكريات دقيقة من أعماق نفسه ، فذابت رقة ونزوعاً إلى الماضي ، إلىالماضىحيث كانيخرجمع رفقة له فى الليالي الزاهرة فيغني ، وتزدهر الأغنية على شفته الناضرة ، لقد كان يغني ،كان فياضاً بالحياة ، وكانت فى زمرته هذه السيدة ، وكان يميل اليها ويتحبب ، لا غراماً ، وانما لحاجته إلى قلب يحنو عليه ويرق له !

كررت سؤالها ، هل نسيت ؟ قال لا ! لم انس . ودمعت عيناه ، فصاحتأتبكي؟ فلم يجب ووجدا ألمها يخف وينتشر رويداً ، وشعرا أن ألمهما هو ألم الدنيا بأجمعها ، ألم الظلام والبحر القلق ، والسماء المتألقة ،والأصدافوالرمال،ألمالانسانيةالتى تتساءل: لماذا نولد ؟ ولماذا نتزاوج ولماذا نموت

وأخذ الليل يظلل حزنهما الذي ذاع في الدجى ، وارتجف مع النجوم ، وانطلق يقرع الرمال مع الأمواج . وسألت النجوم بحرابها فى هاوية الفراغ ، والأصداف المترامية على الرمال والبحر بأمواجه المتعبة ،كلها صاحت سائلة ، لماذا ؟ ؟

ولكن رويدا رويدا . أخذ الظلام يرق ، وأخذت اشعة الشمس فى الظهور ، وأخذت الأشياء تتميز بوضوح

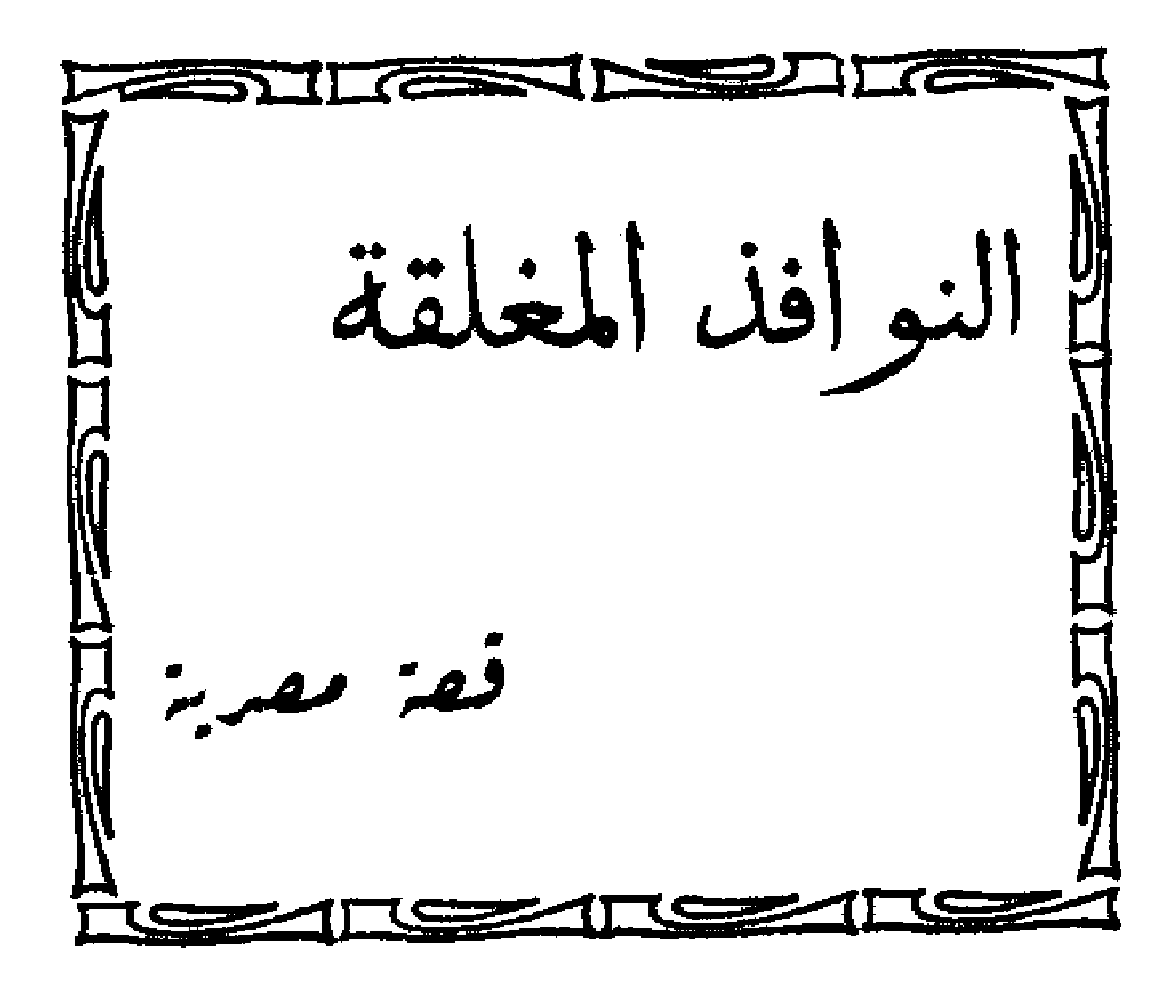
وأخذت ثائرة الرجل تهدأ ، ولم يعد يتساءل ، ورأى نفسه يعود ، ويرى زوجته وولده يرحبان به ويهللان له .

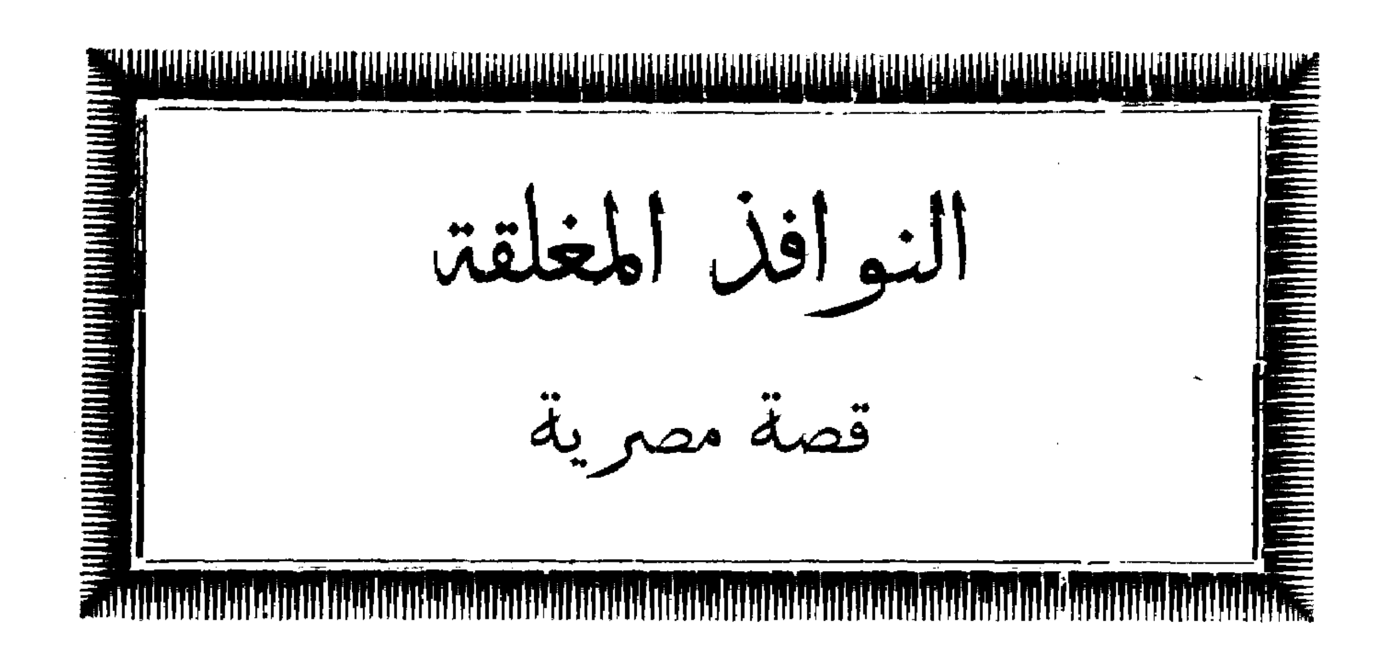
واخذت المرأة بدورها تستعيد شجاعتها . لقد أكثرت من اللجاج والحزن . ربما كانت مبالغة فى حزنها ، ترى الدنيا أشد سواداً مما هى في الحقيقة ووضعت يديها فى جيوبها تفتقد المال ، ها هى بضعة جنيهات تكفيها ردحا من الزمن ريثما تجد عملا يقيم أودها ورتبت شعرها وأحسنت هندامها ، وقالت وهى تبتسم : آه أيها الصديق ، لقد أزعجتك بشكايتي !

وعادا أدراجهما إلى المحطه !

ولكن ذكرى هذه الليلة أستقرت فى حنايا روحيهما ، لتعود يوما ما مصحوبة بخيال البحر والنجوم والرمال ، وتهب كنسمة حزينة عليلة ... !




النوافذ المغلقة
قصة مصرية



النوافذ المغلقة

قصة مصرية

وثب عبد السميع افندى من فراشه ، وأسرع إلى ساعته ، فوجدها واقفة كالمعتاد فلعنها ولعن الشركة الحقيرة التي صنعتها وخدعته فيها . وفتح النافذة بسرعة فعلم من ظل الشمس على الجدار ، انه لم يزل مبكراً . فتنهد فى ارتياح ثم مضى الى المطبخ فوجد « الواد على » يغط فى ملكوت عجيب فركله برجله فقام مذعوراً وقال: نعم ياسيدى ! فأجاب عبدالسميع افندي غاضبا : نعم ايه يا ابن ... مش تقوم تشوف حاجه نفطر . فقام « الواد » ليبحث فى جوانب المطبخ عن هاته « الحاجة » فعثر بقطعة من الخبز فوق « صينية » لم يأكل عليها عبد السميع افندي فقط ، بل أكل الدهر معه عليها وشرب . . !

وتبعه سيده بنظره ، وقبل أن يجيبه ، رجع أدراجه إلى غرفته ، وعاد بقرش في يده أمر خادمه أن يشتري به صحن فول . ثم ارتدى ثيابه فى دقيقة ، والتهم الفول فى دقيقه ، ونزل الدرج في دقيقة . ووقف ينتظر ترام السبتية ليذهب إلى بنك « بابايوانو » الذي يعمل فيه منذ عشر سنوات .

نعم ! منذ عشر سنوات ، وعبد السميع افندي يشتغل كاتباً فى ذلك البنك الرومي ومن أعاجيب الزمن ، وجود هذا الافندي بين الخواجات ، فى بيئة ليس فيها شيء مصري غيره ، وغير أكياس القطن المتراكمة والأرض ، والبواب !

منذ عشر سنوات ، كان المال وفيراً والنعمة تغمر الجميع . وكان (الحاج سيد) والد عبد السميع من عملاء البنك ، فنشأت بينه وبين الخواجه صاحب البنك شبه صداقة . فذات يوم ، شرب الحاج سيد القهوة عنده ، واستغرق في الصمت على غير عادته ، فسأله الخواجه عن سر صمته فأجاب : « والله عبدالسميع ابنى خد الشهادة امبارح ، وبدنه نشغله شغلانه » . فجرى القدر على لسان الخواجه قائلاً : « سيبك من الحكومة وهاته عندنا » ! فعاد الحاج سيد فى اليوم الثانى مستصحباً الافندي المذكور ! واشتغل عبدالسميع ، ودرج الزمن ، وألف الأروام أن يروه كما ألفوا منظر أكياس القطن والبواب الذي يفتح لهم الباب كل يوم !

نعم ! درج الزمن ولم يتغير شيء في عبدالسميع غير ابيضاض بضع شعرات في فوديه ، وغير أنه نسى العربية تقريباً لفرط ما أتقن لغة الأروام .

ومرت حياته على وتيرة واحدة — نفس الغرفة الحقيرة في حارة بقرب المحطة و « واد » يذهب وآخر يأتي من البلد ، ولا فرق بينهم سوى ان هذا اسمه « احمد » وذاك اسمه (على) وهكذا . والحياة في مصر على هذا النسق لدى أكثر الناس ، وبخاصة شبابها ، أمثال عبد السميع . قيام ، فترام ، فبنك أو مصلحة فعودة ، فنوم فقهوة ، فنوم ....! على نظام : « نظرة فابتسامة فسلام ..!

ولكن عبد السميع جد عليه فى عهد هاته القصة مالم يكن له به عهد . فاذا سرت وراءه ، وجدته أكثر قلقاً وأشد شحوباً — واذا وثب الى الترام اندفع إلى قرب النافذة ، واذا وجد من يملأ مكانه استجدى ذلك المكان ممن يملؤه وزاحم عليه اذا

أمكن ، وعرض نفسه للسخرية واللوم . ولكنه لم يكن يبالى بما يصيبه ما دام يحصل على ذلك الركن الحرام .

وعندما يمر الترام تجاه المنزل الكائن بين البقال « خريستو » وشادر الخشب ، يثب بشدة ، ويشرئب بناظر ظاميء يكاد يثب من محجره ، فيقبض بيد على حافة النافذة ، وبيد على قلبه يهدىء من ثورته — ولكنها لحظة — ثم يعتدل فى مكانه تاركا موضعه لمن يرغب فيه .

***

منذ شهرين وعبد السميع يقاتل فى سبيل مكانه قرب نافذة الترام ! نعم يقاتل قتال الابطال ، وفي مرار كثيرة لم يستطع أن يظفر بمكانه المنشود . فاذا اقترب الترام من شادر الخشب ، دهش الناس لشاب مخبول ، يثب فجأة الى نافذة الترام ثم يعود وقد انتهى كل شيء! سكنت العاصفة وبقى القلب يتمزق !

وعرف الكمساري عادته ، فكان اذا رآه سخر به قائلا :

« على الشباك يا افندي » ! فيغضى صاحبنا فى خجل ويطرق دون اجابة !

ما السر فى ذلك القلق والشحوب والجنون ؟ امرأة ولا شك ! وهل غير المرأة تحدث ذلك التبديل ؟ واذا جرت الحياة على وتيرة واحدة ، وسالت مسيل النهر ، وصار لها خريره المتشابه النغم ، فهناك شيء واحد فينا يستمر في ذلك الهدوء ثم يثور عليه ، ويحتج ويصخب ويتمرد ذلك هو القلب ، فله حنينه وجنونه وصرخته وقلب عبد السميع كباقى القلوب ، ظل يتابع ذلك الهدوء ، وان كان يثور أحيانا فيسكته عبد السميع مقنعا إياه بالفقر الذي يحوطه ؛ مذكراً بالغرفة الحقيرة ، و (الواد) القذر

***

ذات صباح ، ثار ذلك القلب ثورة عنيفة مجنونة . وكان عبد السميع فى الترام

فتطلع الى السماء يشكو نار تلك الثورة ، وبينما هو مرسل بنظره الى أعلى بعثت له السماء أمنية القلب ، فى شكل حورية تنظر من نافذة . نعم ، تلاقت عينه بعين ساحرة بشعاع غني ينبعث من بيت فقير . قبس من الرحمة فى بؤس متكدس !

واطلت عليه تلك الرحمة كل صباح ، فى ساعة لا تتغير ، فاعتاد أن يؤمن بها كما يؤمن بالله ؛ وقنع من صحراء حياته بتلك الواحة الخضراء ؛ وفي هجير عمره ؛ بذلك الظل يسدل عليه من خلال نافذة ؛ ويغمر كيانه لحظة ؛ هي زاد له مدى أربع وعشرين ساعة !

وتعارفا بالنظر ؛ ولم يحاولا أن يزيدا على ذلك ؛ وعرفت ميعاده . فكانت تقف حتى يراها . وكثيرا ما كان يأخذ الترام عائدا مرة ثانية لعله يراها مرة أخرى . فيخيب ظنه ! وأيقن ان رحمة الله تأتي مع الصباح لأسعاده وربما دارت بأشعتها كالشمس . تغمر آخرين . وكان هو سعيدا . وعاد شاعرا لا ينظم الشعر قولا . بل أحلاما موزونة ذات روى وقافية . وباتت تشغل أيامه ولياليه . فاذا عاد إلى منزله. تخيل ضحكة مغردة كتغريد الطير . ترن فى جوانب منزل جديد . لا فى هذا الركن البائس الحقير الفائض بالظلام !

وتخيل خدما كثيرين يرتدون ثيابا نظيفة بيضاء . لا (الواد على) بطاقيته وجلبابه الملوث !

واذا مضى الى القهوة . وجاءت (الطاولة) واندفع في اللعب . لاح له خيال النافذة . وابتسامة الوجه البديع الرقيق . فأخذ يخلط فى (الخانات) . وأخيرا يسأم فيتخلى عن مكانه لغيره . وقد أثار الضحك والعجب !

ومرت الأيام . والخيال الجميل يقف له . والأحلام الذهبية تملأ عيشه رغدا . وكان يسأل نفسه متى يعتزم أمرا ؟ متى يسأل أهل الفتاة يدها ؟ ويصبح خطيبها !

فكان القلب يقول (متى) ؟ وكل شيء في جوارحه يردد الصدى ويقول (متى) ؟

***

ركب عبد السميع الترام كالمعتاد كل صباح! واشترى (الاهرام) . واندفع يقاتل دون مكانه المشتهى . واذا بطفل ضخم يملأ فراغ النافذة . وفي احدى يديه (سميطه) وفى اليد الأخرى حلاوة المولد . فدفعه عبد السميع بغضب . وصمم الطفل على أن يزاحم ليرى ما يريد أن يراه الأفندي . فكانت معركة عجيبه بين طفل وشاب . . . ! وصرخت أم الطفل . وثار الناس . واقترب الترام من شادر الخشب. فلم يعد يعبأ عبد السميع بأحد وجرى الى حيث يرى خياله المعبود ... !

ولكنه لم يلبث أن ارتد الى مقعده يائسا واهي القوى ... لأنه في هذه المرة وجد النوافذ مغلقة على غير عادة . فلم ير وجها يطل ولا فما يبتسم . ولا حبيبا يرقب الميعاد ... !

ومضى الى البنك . وقد سئمت نفسه العمل . وأحس بذبول في كيانه وضعف ومرض ! واعتذر بعلة وعاد مؤملا أن يراها في العودة !

لعلها مريضة ... لعلها خرجت لحاجة تقضيها ... لعلهم عزلوا » ... !

ورنت في فضاء فكره كلمة ... لعلها ... ! متلاحقة حتى أصابه دوار مريع !

وبينما هو فى الترام . شديد الملل . شديد اليأس . ممسكا بالصحيفة . . . وكان قد نسي أن يطالعها . خطر له أن يتسلى بالقراءة ... فماذا قرأ ؟

قرأ الخبر الآتي :

(صدم ترام السبتية مساء أمس فتاة وطنية ساكنة بمنزل نمرة . . . بينما هي تجتاز الشارع . فنقلت الى المستشفى في حالة خطرة . وماتت على الأثر)

وكان الترام يقترب من شادر الخشب . ويمر بالمنزل نمرة . . . منزل الأمل ووكر الأحلام . . . !

واذا بالنوافذ مغلقة . واذا بسيدة تبكى عند الباب وقد اتشحت بالسواد !

فوجد عبد السميع نفسه يجيش بالدمع أمام الناس . ورأى املا يتلاشى . ورجاءاً يتبخر . وقدرا يقهقه . ودنياً سافلة . . !

والترام فى سيره . . . والقافلة كما هي . . !





قاسم أمين

سادتي الأفاضل

قاسم أمين شخصية فذة متعددة النواحي ، نواح كلها عظيمة جليلة ، وهل هناك أروع من شخصية جمعت تقديس الحرية والجمال والفن ؟ هل هناك أروع من شخصية قاض يغفر الخطيئة ويعفو عن المجرم ، هل هناك شخصية أروع من شخصية رجل فهم روح هذا البلد ، وتغلغل في أعماقه ؛ وعرف السر في تأخره ، اندمج فيه حتى أحس بآلامه ، شعر بشعوره ، ثم راح يعمل على انهاضه من كبوته .

نواحي قاسم متعددة ، نسيت كلها تقريباً وعادت لايذكرها إلا الأقربون والمتأدبون وبقيت ناحية واحدة تكفيه للخلود . تلك هي ناحية المرأة

ومن هذه تذكرون قاسم وتمجدونه ، وتحتفلون بذكراه .

وأنا وقفت اليوم استعرض حياةَ رجلٍ تمثل حياة عصر بأكمله ؛ نعم حياة عصر بأكمله . . . .

فالذين يدرسون التاريخ فريقان . فريق يعزو الحوادث العظيمه في التاريخ إلى أزمات اقتصادية ، ويؤيدون قول نابليون « الدنيا قامت على الجوع والخوف » . وفريق يعزو الحوادث العظيمة في التاريخ إلى أزمات فى أرواح أفراد ! ويؤيدون بذلك قول أناتول فرانس :

(الدنيا قامت على الحب والجوع !) وأنا شخصياً من الرأي الأخير الذي يؤمن برأي الأزمات الروحية . ولاينكر ما للرأي الأول من بعيد الأثر. خذوا الثورة الفرنسية مثلاً ، فيها عوامل اقتصادية واجتماعية هائلة، ولكن من من منا ينسى فولتير وروسو أو يتجاهلهما ؟ ؟ ان الذى يدرس فولتير أو روسو . والذى يحللها ويعايشها . يفهم الثوره الفرنسية وعواملها تماماً : وكذلك الذى يحلل قاسم امين طفلا . فشابا يافعا . فكهلاً ناضجاً . كيف عاش وكيف أحس وفكر . الذى يستذكر أصدقاؤه الذين أحبهم وحببوا اليه الحياة . ونفضوا عنه غبار السأم . الذى يستذكر ذلك يقرأ فصلاً رائعاً من كتاب حركتنا القومية . يقرأ فصلاً عن الاصلاح الاجتماعى يمشى جنبا لجنب مع الاصلاحين السياسى والدينى . يرى سعد زغلول وقاسم أمين ومحمد عبده يرى ثلاثة من العباقرة . أولهم يتميز بالجرأة النادرة . والثاني بالاحساس التام والعاطفة المستعرة والثالث بالايمان العامر . الايمان المبنى على العقل الكامل . هؤلاء اتفقوا فى انهم من صميم هذا الشعب . واتفقوا فى أنهم أكملوا ثقافتهم فى فرنسا . والثلاثة اصدموا بطبيعة هذا البلد الساكنة الحالمة الغارقة في الماضي المحبة للهدوء والراحة . اصطدموا بالمعاول الهادمة . فتولاهم السأم والملال حينا . وأقسموا أن يتركوا هذا البلد يغط في أحلامه ولكنه قسم وليد ليلة لم يكد يطلع عليه الصبح حتى تبخر . واذا الرجل منهم يندفع فى تنفيذ برنامجه الهائل ناسياً فى سبيله كل شيء ومضحياً بكل شيء ! ولسنا الليلة بسبيل الكلام عن الاصلاح السياسي ولا الدينى. وانما عن الاصلاح الاجتماعي فى شخص قاسم أمين ....

طفولة قاسم

ان ماضي الأمم متصل بحاضرها متغلغل في مستقبلها . وكذلك الأفراد لايمكننا أن نفصل ماضى شخص عن حاضره ويمكننا أن نتنبأ بصدق عن مستقبله : ومن رأى

كثيرين من العلماء اليوم أن الشخص يولد وفي خلاياه خلقه وما تركته الوراثة . وفيها كذلك خلاصة التقاليد الذي مرت بقومه على الأجيال . وهذا مانسميه بالقومية وما الثقافة — كما يقول جوستاف لوبون إلا كساء . وأن الوزير والفلاح عندنا هما واحد فى طبيعتهما المصرية . ويبدو هذا الخلق الواحد فى المجتمعات الكبيرة كالبرلمانات مثلاً فان الانجليز تلقوا خبر مقتل غوردون فى البرلمان بالبرود الانجليزي المتأصل فى خلاياهم وعندما خرجوا ثارت ثائرة كل منهم على حدة ...

ولد قاسم وفى دمه مصرية صحيحة . وهى انعكاس لطبيعة هذا البلد الجميل . هدوء وحياة ودعة واستسلام . إلى احساس ونبل وكرم . الى عطف وصفح وسلام . وكان الاحساس الوافر الشديد هو ميزة قاسم الكبرى . ترى ذلك فى عينيه الواسعتين الكبيرتين اللتين تطلان على العالم وفيهما أغوار سحيقة من العاطفة الدفينة والحب الجياش المستتر . تعلم الطفل قاسم كما يتعلم غيره من ابناء الطبقة التى تعيش فى يسر ورخاء . وان تخيلته فى ذلك الوقت اتخيله طفلا محبا للعزلة دائم التفكير والتأمل . يهرب من عزلته ليتخير صديقا أو اثنين . يحبهما ويستعين بهما على الضجر والسأمة ويفضى اليهما بين وقت وآخر بملاحظاته عن المدرسة والمدرسين والرفاق . منتقداً حينا وحيناً مبديا دعابة حلوة . ذات خيال شعرى بديع ومن يدري ربما بكرّ اليه الحب في سنٍّ غضٍ ونفسه حساسه مستعدة لقبول الحب الشريف الذي عاش يمجده فيما بعد ويعزو له سعادة الدنيا كلها . من يدري ربما جلس فى خلوة هادئة مع صديق أو اثنين يقص عليهما تلك العاطفة . وتأثيرها فى نفسه وتطهيرها لقلبه . واستيلاءها على روحه . ترفع عنها الحجب . وتبصرها بما لا يرى الناس !

هكذا ظل قاسم : طفلاً . فصبياً . فشاباً حتى أخذ أجازة الحقوق : ثم سار إلى فرنسا وهنا كانت الخطوة الأولى فى تفجر الينبوع المحتبس فى صدر قاسم . هنا كان

سبيل المقارنة بين شعبين ، وبين مدنيتين ، هناك كان سبيل جديد للتفكير والتأمل .فهناك كان معرض جديد للفن والجمال ، هناك كان معرض جديد للحرية هناك شعب لاتزال ترن في آذانه صيحات فولتير وروسو ، ولم تستفق بعد من نداءات الثورة . أخذت فرنسا قاسماً بالعاصفة ، فتحت قلبه وفجّرت روحه وألهمت إحساسه .

نعم احساسه وكان رجلاً متقد العاطفة . يعد العاطفة كل شيء ، ويعد العقل قاصراً لايجدي كثيراً . ويؤمن أن العاطفة هي التي جعلت الانسان يصل إلى الله . ويفهم الفن ، ويعرف أسرار الجمال ... ان الذين درسوا تاريخ فرنسا الحديث يعرفون لن اثنين قامت على أكتافهما الحركة الكبيرة الهائلة . فولتير وروسو. أما فولتير فكان يدعو إلى استعمال العقل ، ويقول ان الأمة إذا أخذت تفكر فانها أخذت تسير إلى الأمام ولا شيء في الوجود يعوقها . وفي الواقع أن فرنسا أيام فولتير أخذت تفكر ... ولذلك شقت طريقها ، أما روسو فكان يدعو إلى حياة القلب إلى حياة الطبيعة ، إلى عبادتها وتقديسها واستلهامها . ويظهر أن فرنسا بعد أن تبعت فولتير وشقت طريقها أخذت برأي روسو ورأى روسو هو سرّ الحياة ولب لبابها ...

ماذا رأى قاسم في فرنسا ؟

رأى الحرية ، رأى الحرية في ابداء الآراء ، وابداء المعتقدات ، ورأى الرجل يحترم رأى جاره ، ويحترم نفسه

رأى الفنون ، رأى المعارض الهائلة ، والمسارح والموسيقى المتجددة المتنوعة ، ورأى أخيراً المرأة تمشي بجانب الرجل وتكمله !

ورأى أيضاً ذلك الرجل مستعداً لاضافة ذلك القبس الالهي ، فاهماً نعمة الله عليه معترفاً بجميله ، مقدساً إياه في شكل ذلك الرفيق المكمل له ، ورأى القوم يجددون في كل شيء في اللغة وفي الآداب وفي العلم

خلا قاسم إلى نفسه وقال ولماذا لايكون ذلك في مصر ..؟..!وفجأة مرت سحابة

أمام نواظره ، ودمعة في محاجره : مرت بسرعة صورة من ماضي أمته ؛ رأى ملوكاً يغيرون وقوماً آمنين وادعين هادئين مكتفين برزق يومهم ،هبّوا هبة ،وغضبوا غضبة حين أقبل المعتدي على ديارهم ، وربما ثاروا فى وجهه يوماً أو بعض يوم وربما كان لهم قادة وزعماء أقوياء . . . ولـكنهم سرعان ماهدأوا ونزلوا على رأي الحاكم الجديد ، وبذلوا له كرمهم القديم ونبلهم المتناهي وما زالوا به حتى فاضوا عليه من طباعهم ، فمصّروه وعلموه أن يكون مثلهم مضيافاً كريماً متسامحاً ! اولئك قوم يحبهم الانسان ويغضب لهم وعليهم بقدر ما قبلوا المغيرين عليهم ورفضوا أن يغيروا ما بأنفسهم . . .

فـكيف السبيل إذن لمن كان مثل قاسم أن يدخل إلى مصر كل ما رأى فى فرنسا من جديد ورائع ؟ وقفت العقبات مرتسمة على وجه قاسم ومحطمة آماله الـكبيرة ... فانطوى على نفسه وخبأ آماله الواسعة فى قلبه الـكبير وصبر حتى عاد إلى مصر . فى مصر عين قاضياً فـكان قاضياً ذا مبدأ جديد ؛ مبدأ غفران الخطيئة والصفح . ولا أنسى أن أذكر لـكم قوله فى السخط وغضب « هناك قضاة يحكمون بالظلم ليشتهروا بين الناس بالعدل » ...

كان قاسم كثيراً مالايبالي بالقانون .ويحكم أحكاماً غاية في البراعة .أحكاماً أدبية تسجل له بالفخر وكان كثيراً ما يجمع الخصوم فيصلح بينهم . كان رجلاً يعرف معنى الخطيئة . ويقول كما قال المسيح حين جاءوا له بالزانية ليرجمها « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها » وكان يقول حين يظلمه قومه ويثورون ضده « رب اغفر لقومي فانهم لا يعلمون » . في هذا الوقت كتب الدوق داركور كتابه ضد المصريين مشنعاً عليهم متهماً اياهم بالجمود والتأخر .فرد عليه قاسم بكتابه الجليل «Les Egyptiens» فهنا إذن كانت المرحلة الثانية فى حياة قاسم هنا الساعة التى جعلت قاسم يلتفت إلى نفسه ويشعر بالقوة الـكامنة به ويقف الوقفة التي ألفتت الأنظار اليه . والخطوة الأولى الحقة فى الطريق الذي رسمه فى سبيل الاصلاح والعظمة التى جمعت حوله العظماء الذين

وجدوا في روحه صدى لأرواحهم وفى دفاعه عن المصريين نفس مايجول فى خواطرهم وخلا قاسم إلى نفسه وكان كثير العزلة دائب التأمل خلا إلى نفسه وإلى صحبه بعد أن دافع عن قومه قائلاً ها أنذا دافعت عنهم وسترت عيوبهم ولكن ما السبيل الحق لاصلاح هاته العيوب ؟.. إذن قامت الأزمة الروحية فى نفس فرد وربما فى نفس أفراد وأذن فقد خرج قاسم الوادع المستقر . المستتر بحيائه المعتصم بعزلته خرج عن صمته وانبرى إلى الميدان ولم ينبرِ إلى الميدان وحيداً ولا خرج بمفرده . فقد صادفت دعوته هوىً فى نفوس آخرين لايقلون عنه غيرةً وتفكيراً وعزماً . فانضموا اليه وأخذوا جميعاً يضعون برنامجاً للاصلاح ... ولو تخيلتهم لتخيلت مجلساً رائعاً تم التفاهم فيه بين أفراده . وتوثقت الألفة . وتكامل التجاوب العقلي والروحي . ها هم يضعون برنامجاً واسعاً جميعهم نشأوا فى مصر وتثقفوا فى الخارج . جميعهم يفهمون أولاً أن المهم هو التعليم الذي يعد الرجل للحرية والكفاح لا التعليم الذي يعد الرجل للوظيفة ويكبله بقيودها ! التعليم الذي يؤهل الرجل لمواجهة الحياة والاستمتاع بها وبالتناول من أطايبها تناول الرجل الجدير بها بعد خوض المعركة والابتلاء بنارها وغمارها .... ماهو هذا النوع من التعليم ؟ التعليم الجامعي وعلى ذلك أخذوا يفكرون فى انشاء الجامعة ... هذا فيما يختص بالرجل . هذا فيما يختص بنصف الأمة. بنصف الحياة. والنصف الآخر ؟؟ المرأة ؟ .. ؟ .. ! .. ! وقف الحجاب حائلاً ! قبح الحجاب ! قبحت تلك الخرقة المغرية التي هي علة ما ابتلينا به من جمود وتأخر وتدهور شنيع ! وكيف السبيل إلى تمزيقها ؟؟ هناك حوائل هائلة من الرجعية . والتقاليد والعادات والدين . حوائل متكدسة مخيفة كسحابة قاتمة تظلل أفقاً ما أجمله لولا هذه السحابة الثقيلة . هذه السحابة التى تبرقع وجه السماء ... وتحجب العظمة التى وراءها ... والذي نبه قاسماً إلى آفة الحجاب هو رؤيته لامرأة محجبة تمشى . وقد حجبت وجهها إلا العينين. تغريان من خلف الحجاب . إلا مشية تدعو الرجال إلى الفجور ....

وصفها أتم وصف فى كلماته ... وندد بذلك الحجاب السخيف وسخط السخط موتور يود لو مزقه بيده تمزيقاً .

ولم يكن قاسماً مصلحا . وأديبا . ومفكراً فحسب بل كان فيلسوفا اكتسب فلسفته من اعماق احساسه وإدمان تأملاته . . .

كان يدرك ان انحطاط الفنون والأخلاق والهمم وتدهور الآداب والطبائع . كل هذا سببه شيء يدعى الحرمان والكَبْت ...

كان يعرف أن الملهم الصحيح للغناء والشعر والموسيقى هو المرأة . لذلك لم يكن لنا فن ولا شعر ولا موسيقى لأن الملهمة محجبة متروكة فى المنازل كالبضاعة القديمه . .
وكان يرى الخمول والضجر والسآمة تعلو وجوهنا وتطبع مجالسنا بطابعها لأن الفتنة التي كان يجب أن تنشر البهجة بيننا قد تركت لتذبل وحدها فى بيت أسدلت استاره واغلقت نوافذه . وكان يرى الفاظنا عادية . وكلامنا لا جديد فيه . ويتعطش للقول النادر . والنكته العبقرية والدعابة الساحرة فلا يجدها . ومن الذي يخلق هذا القول البارع أو النكتة الساحرة أو الدعابة الرقيقة إلا المرأة ووجودها بيننا ...

وكان يرى أننا لا نعرف كيف نعيش . وأننا لا نستمتع بالحياة . وقد كان قاسم رجلاً يحب الحياة ويدعو للتمتع بها ... والتمتع نوعان ! نوع محرم وكثيرون لايزالون يزاولونه في عصرنا الحاضر : ولو سألت اكثرهم لأجابك أنه نوع قصير الأجل . سخيف . سرعان ما يسأمه الذي يزاوله . هو نار تحرق نفسها وتحرق اللامس لها هو ذلك اللهو الذي كثر عند ما انعدم النوع الآخر ... النوع السامي البريء المشرق. النوع الذي تكون فيه المرأة الطاهرة ملهمة رفيقه حلوة تشع فى انفسنا السرور والرفعة وتوحي الفضيلة والتضحية . وتجعل الشاعر يشدو بالشعر الجيد والمصور يبدع في تصويره . والفنان فى موسيقاه ! قاسم كان يمجد هذا النوع من الاستمتاع الشريف الطيب . كان يمجد الحب الطاهر . كان يمجد الجمال في كل أشكاله ويدعو

الى عبادته . وكان فى دعوته متفائلا يحب أن يؤمن الناس كما يؤمن هو ان الله خلقنا لنسعد ولنرد موارد النعيم . غير أنه لما أخرج كتابه عن المرأة ... كان هذا الكتاب شيئا غير مألوفا في هذا العهد ... فتألب الخصوم عليه يريدون تحطيمه . اكثر الذين ينادون اليوم بحقوق المرأة كانوا اكبر أخصامه إذ ذاك .

فقد كانت الحركة مزدوجة فى بلد تكفيه حركة واحدة ... قاسم أمين فى ناحية ينادي بتحرير المرأة . ومحمد عبده فى الناحية الأخرى ينادي بتحرير الدين من البدع والخرافات ويدعو الناس لتحكيم العقل فى قضايا مرّت عليها الأجيال وهي فى قدسها تتحدى الزمن !

اما الشيخ محمد عبده فكان يملك ان يؤثر على الناس وان يوجهافكارهم كما يشاء . إذ كان فى منصب الافتاء . أما قاسم فليس له غير قلمه .

كان يقول عن خصومه هذا القول المدهش « كانوا يخشون الخروج من وكرهم لتصيد الخيرات الغامضة المبعثرة في ظلام المستقبل »

ويقسم أن يتركهم وشأنهم ... يطوي دعوته ويكسر قلمه ...

فاذا به يعود ثانيا ويجد القاعدة القصوى في التهذيب هذه هى : العفوعن الخطيئة العفو عن اكبر خطيئة . العفو عن كل خطيئة !

واذن فهو كان يغفر لقومه جهلهم وعدوانهم ... وراح يخطب فى دار حسن باشا زايد قائلا « اننا نطمع فى أن نرى بين أبناء وطننا طائفة تطلب العلم حبا للحقيقة وشوقا إلى اكتشاف المجهول فئة يكون مبدؤها التعلم لوجه العلم . نريدعالما يحيط بكل العلم الانساني اختصاصيا اتقن فرعا مخصوصاً من العلم وكاتبا ذاع صيته فى العالم وعالما يرجع اليه فى المشكلات ويعتد برأيه ... أولئك الذين إذا عدمتهم أمه حل محلهم الجاهلون والدجالون ! »

وكان يعزو كل نقص فى الحياة العملية إلى نقص تربية الاحساس فى طفولتنا ، أهملنا قلوبنا فصرنا ماديين ، صرنا نكتفي من الحياة بتحصيل الرزق ، ولذلك قلّت مطامعنا ، وقل المكافحون المغامرون الذين يثبون إلى الصف الأول . . . لأن الشجاعة الحقة هي شجاعة القلب . أما الشجاعة التي تأتي من العقل فآفتها كثرة التردد والتدبر ...

اذن دعوة قاسم هي دعوة فنان يحب الحياة والحرية ، والجمال . ويرى أن السعادة الأولى هى في« شكل امرأة لها جمال المرأة وعقل الرجل !» ويقول عن الحب الشريف : « إذا كان المال هو زينة الحياة فالحب هو الحياة بعينها ! »

ولكى يفهم الرجل المرأة تماماً ويصلح لعشرتها يجب عليه أولاً أن يتعلم تعلماً يؤهله لذلك ، تعلما يعده للحياة كرجل ، ينزل في غمارها ويستمتع بها آخذا من فنونها ما يسعده وينشط أعصابه ويجعله يبتدع ويفكر ويخلق ....

ولا يمكن ان يبتدع ويفكر ويخلق إلا إذا سارت المرأة الى جانبه تلهمه وتهذب طباعه وتجعله قويا بحبها وعطفها . وتريه من خلال ذلك الحب ما هو كائن في الدنيا من خير وجمال وابداع ... ولكونه يدعو إلى السمو عن سبيل المرأة والحب فهو من ناحية أخرى يدعو الى الغفران والصفح والسلام . ولم تكن هذه نظريات يدعو اليها وينساها هو : بل لقد أوذى من كثيرين وقام الناس فى وجهه ، حتى منع من دخول قصر عابدين فكان يجد فى هذه العراقيل « ما ينشط أعصابه ويغريه بالاستمرار والثبات »

هذا منذ ربع قرن أيها الساده :

فأين هو الآن لتبصر عينه الطفيه النادي ونعيمة الأيوبي ومنيرة ثابت وغيرهن

انه يباركـكم من قبره ، وروحه بلا شـك كانت تطوف حفلة الاتحاد النسائي مغتبطة هانئة .

على أني اثق انه لو وقف بينكم اليوم لقال لـكم بورك فيكم : ولـكنكم لا تزالون فى أول الطريق ... لن تظفروا بالخير حتى تخطو خطوة أخرى .

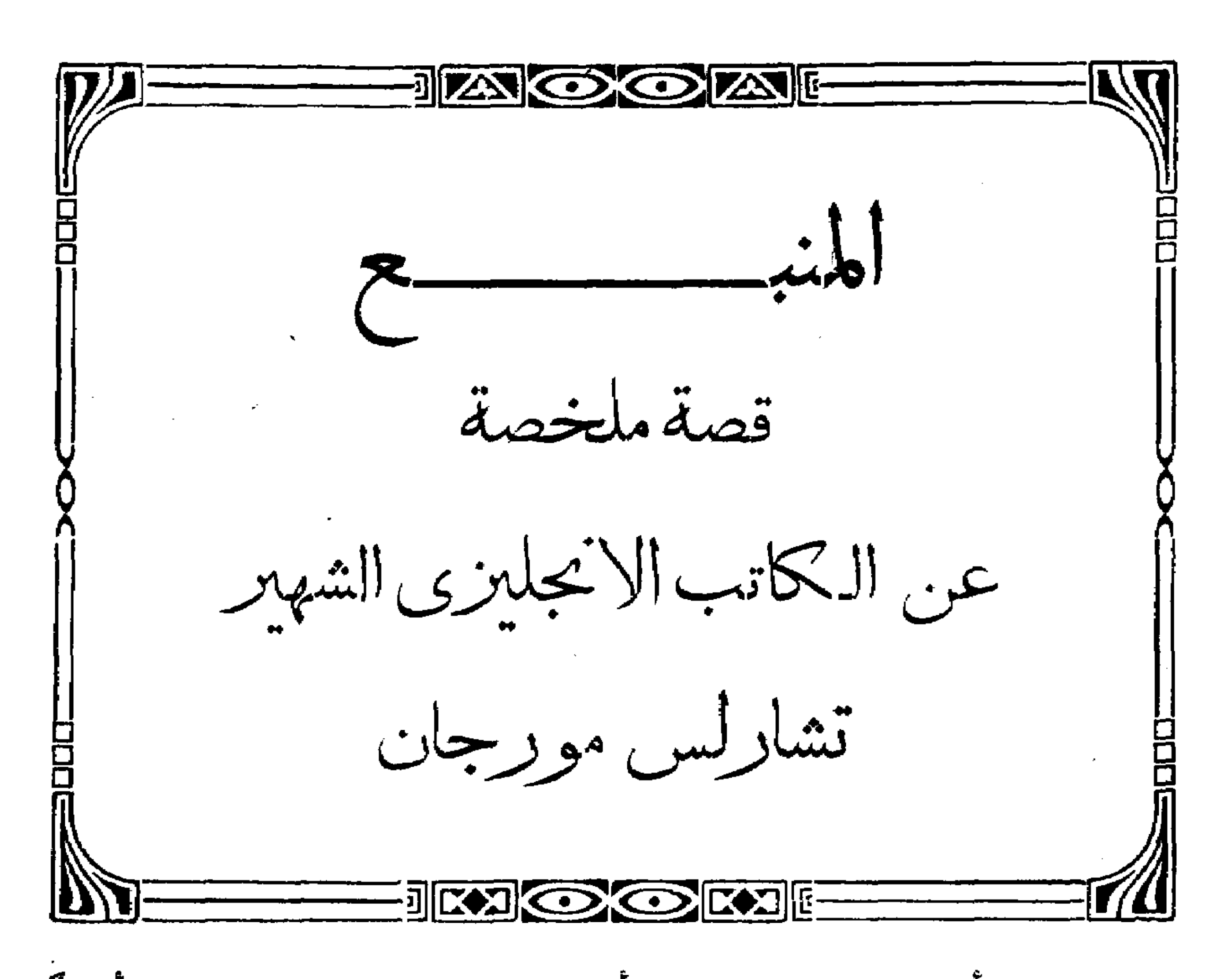
هي ان ترى نساؤكم علنا فى مجتمعاتكم ناشرات البهجة والنور واليقظة فى الـكون . . .

ويقيني ان هذا اليوم ليس ببعيد





المنبع



« لاغرو أن قصه المنبع . انما هي أقوى القصص العالمية التي ظهرت أخيراً وقد كانت درة الموسم الماضى فى عالم التأليف . أما موضوعها فهو التفاهم الفكرى بين رجل وامرأة والتفاهم الروحي بين رجل ورجل هما في القصة أخصام ولكن التآلف الفكري والتوافق فى ذلك الأفق العالي يمحو الخصومة ويسمو بالناس إلى مراتب الألهة.

والقصة التى نحن بصددها مقسمة إلى سبعة أقسام . الأول دعاه المؤلف (بالطابيه) والثاني (القلعة) والثالث (البرج) والرابع (الهرب) والخامس (القيد) والسادس (النهاية) والسابع (البدء) وهو تقسيم ظريف كما يدل على ذلك سياق القصة

ولعل أبرز طابع فى « المنبع » هو الطابع الفلسفي الذي يطبعها من أولها إلى آخرها ونوع من التصوف يحيط بالقصة كهيكل من القداسة وبينما ترى المؤلف يحلق ذلك التحليق . ويصعد بنا في هاته الاجواء إذ بك تراه ينزل بنا إلى علاقة الاجساد

ويعود بنا آدميين تحكمنا غريزة الجنس وتطغى علينا .وينسى المؤلف نفسه. ينسى الفلسفة الصوفية التي يحبها . ويصير عصرياً يصف العلاقة الجنسية في صراحة مدهشة . فبينما انت تقرأ فلسفة بلاتو . إذ بك تقرأ فصلاً في الحب البشري . في سموه وانحطاطه . في سمو التفاهم الكامل وفي تسفل الشهوة الجامحة

نحن الآن في خلال الحرب العالية الكبرى . العالم في اضطراب وقلق . يصف لنا المؤلف قطاراً مسافراً يحمل بعض الأسرى الانجليز الى أرض محايدة هي هولاندا

وبين هؤلاء بطل القصة « ليوس » Lewis لايزال في مقتبل الشباب. ولكنه لفرط اغراقه في الفلسفة والتفكير . يبدو أكبر سناً من حقيقته . ويتكلم بروية وتؤدة فيضطر غيره إلى الاصغاء اليه . نفهم من حديثه معهم انه مغرم بالتاريخ لا يدرس التاريخ لنفسه . ولكن للفلسفة في التاريخ . يدرس تطور العقل الانساني المشترك في العصور المتعاقبة . ويتابع ناحية جلية فيه . هي أن هناك عقلاً واحداً من أقدم عصور التاريخ إلى اليوم . يحاول أن يرى ويصل الى النور وسواء كان ذلك بلاتو أو نيوتن فانه العقل الانساني . يحاول أن يخترق الحجب وأن يمزق قناع الغيب

« ليوس » ذاهب مع رفاقه الى « طابية » في حراسة قائد هولاندي . يفرح ليوس بالأسر ويراها فرصة سانحة ليخلو إلى النفس ويفكر ويخلع عن نفسه ثوب الجسد « كما يخلع الثعبان ثوبه » وتصل اليه كتبه التي أرسل في احضارها من انجلترا فيستعد للخلوة والقراءة ويعطيه أحد الضباط غرفة ليخلو فيها ويقرأ على هواه فيمزح معه أحد رفاقه قائلا : أنك لن تستطيع أن تستمر على هذا الانقطاع عن العالم . لانه لا بد من امرأة تفسد عليك ذلك . أن النساء يأتين من حيث لا ندري . انهن يتسللن الينا من حيث لا يعلم الا الله

ولا يكاد يمضى على هذا المزاح بضعة أيام حتى يعلم من قائد الحامية أن سيدة هي زوجة لبارون هولاندي تعرفه من انجلترا . سمعت بانه في الطابية فهي قادمة اليه

تزوره . ويدعوه القائد ذات يوم ليتناول الطعام مع البارون وزوجته .

ونعلم من سياق القصة ان البارونة كانت مربية في انجلترا وأن ليوس كان مدرساً لابنتها . وان البارون تزوج منهـا بعد موت زوجته . وأن للبارونة ابنة — تلميذة ليوس — موجودة بقصر البارون فى انكندال . وأنها متزوجة من الماني غائب يخوض غمار الحرب . وأنهـا آية فى الحسن وأنهـا لا تزال تذكر ليوس . وتريد أن يزور القصر عند ما يعطي اجازة قريبة ليرى المكتبة الكائنة ببرج القصر ، والتى تطل على البحيرات الرائعة والادغال الجميلة : والاسرى فى الطابية . صنوف متباينة . فمنهم الطيار الذي اعتـاد الجو فلا يستطيع الصبر على الاسر . فيقول لليوس مخاطبا اياه : « اتعلم أني حين اطير أصل إلى لحظات ينكشف لى فيهـا الغيب . وارى ما لا تراه العيون ، كما ترى أنت بالطبع حين تخلو إلى نفسك والى افكارك . ثم اعود الى الأرض.. أعود آدمياً مع الأسف كما تعود انت بعد خلوتك . لتختلط بنا وتتكلم معنا »

وبينهم الجندي القديم الذي يشرب الويسكي ويلعب الورق حيث يكون وبينهم الجندي الذي يحاول أن يعود لمهنته قبل أن يصير جنديا مثل بالاتر صديق ليوس . فهو يأخذ قطعة من الأرض فيتفنن في زراعتها . ولا يتكلم الا عن الزراعة . ولا يعلم من أمر الدنيا غير الزراعة . يدعى الى القصر فحين يعود الى الطابية يسأله ليوس . عن المكتبة فيقول : « خشب زان ، ورفوف منقوشة والوان ظريفة أما الكتب التي بداخلها فلا تهمه مطلقا »

هؤلاء الاسرى على إختلاف طباعهم يفكرون فى الهرب ... أما ليوس فلم يفكر فيه ولم يخطر له ببال . لأنه سعيد بخلوته وكتبه ، ولـكنهم حينما يسرون اليه تفكيرهم فى الهرب يجد نفسه مرحبا بالفكرة ويجد نفسه الرأس المدبرة للمؤامرة فيلقى الكتاب من يده وينظم لهم امورهم ويرسم لهم الخطة وهي حفر خندق . يبدأ من غرفته . كيف يحفرون الخندق . وكيف يخفون اصوات المعاول ، ينظمون حفلات ملاكمة يرأسها

القائد الهولاندي نفسه . وفي اثناء اصوات السكر والضجيج تعمل المعاول ويحفر الخندق

يوشك الخندق ان يتم في بضعة أيام ، ويتهيأون هم ويستعدون بأمتعتهم للهرب ولكن خادما يكتشف الخندق بطريق الصدفة . فيخبر القائد . فيغضب . ولكنهم يصيحون مازحين : لتحيي الاراضي المنخفضة Pays Bas يقصدون هولاندا والخندق . فيفهم النكتة ويضحك . ثم يلبسونه بيجامته ويأخذون بيده وينزلونه السرداب الذي احتفروه . بعد بضعة أيام يعطى ليوس وبالاتر اجازة قصيرة يسمونها Parole ونعلم انهم ينوون ان يقضوها في انكندال حيث يوجد قصر البارون ... ونرى ليوس قبل الرحيل يقرأ كتابا للصلوات . يسأله بلاتر عنه فيقرأ له فصلا رائعا .

« عند ما كنت طفلا أخذ الله بيدي . وعند ما كبرت هربت منه . ولما احتجت الى الراحة والسلام بحثت عنه وطفت المدينة بمصباح ثم غمرتني المذله . وانحنيت الى الارض ابحث عنه في الاوكار . وتحت صفحات الازهار . ولكن لم أجد سلاما ولا راحة . وصرت كطفل أو كعالم كبير ضل طريقه فلم أعد أعلم عم ابحث فرميت مصباحي ومفاتيحي وبكيت ورأيت فجأة نوره يملأ قلبي . وعدت الى المدينة فاذا النور لا يزال حيث هو . واذا بي امرح في سجن نفسي . بينما الدنيا تتابع الطرق على بابي . رباه ! ! اعطني يدك عند ما تدعوني اليك

أليست هذه الصلاة البديعة شبيها بصلوات تاجور !

ويستأجر ليوس وصاحبه بالاتر منزلا صغيرا يسمونه كوخ Cottage وهذا الكوخ ما هو إلا منزل أنيق جميل وينضم اليهم صديق ثالث يدعى رامسدل

ليوس في غرفة يقرأ ويفكر ! ويسمع صوت صديقه بالاتر وصوتاً آخر يعرفه! صوتاً يقول : « علينا به نخرجه من مخبئه فيجيب بالاتر وماذا يهمك منه ؟أأنت صائدة » فتضحك ضحكة التحدي والسخرية فلا يعود ليوس قادراً على الاحتجاب لقد غزاه ضحكها في مكمنه غزواً وكأنما ضربته فوق وجهه بزهرة لافحة !

هذه الضحكة جاءت اليـه من الماضي البعيد واستثارت ذكريات غالية . فذكر الطفلة الجميلة التي كان يقرأ لها الادب الاغريقي . وما يزال يقرأ الاوديسا حتى تعود كلماتها الحانا سحرية .

خرج من مكانه وتبعهما حتى ادركهما قرب القصر . وكانت تشير الى صاحبها انهـا تسكن اعلى القصر . في البرج . فحين ابصرت ليوس صاحت « استاذي » ثم قالت في دلال : كيف تجدني الان . هـل تغيرت ؟

قال لها : اصبحت كشبح جميل قام من هذه البحيرة .

قالت . اذن وداعا للحم والدم !

واسرعت الى القصر كالطيف المعبود

يزورون القصر ويصعدون الى البرج فى صحبة البارون ويتفرج ليوس على المـكتبة ويرى الـكتب الغالية صفوفا صفوفا . وكان يحب فى الـكتب . صبرها وتعاليها وصمتها . يبقى الـكتاب اعواما طويلة فى مكانه فما تفتحه حتى تهب عليك النسمة القديمة بعطرها وسحرها . وتسمع النغمة القديمة هى هي لم تغيرها الاجيـال . واذا قرأت مرة فشرد فـكرك واندفعت في حماقة أو غرور . تعود حينما تشاء الى استاذك واثقا من صفحه وغفرانه . واذا لم تفهم شيئاً تعيده وتعيده كما تحب واذا لم يرقك تلقيه جانباً وتمضي فى سلام .

يرى المـكتبة ، فيخيل اليه أنه رآها قبل اليوم ، انه ليس غريباً عن هذا المـكان

والواقع أن هذا يحدث كل يوم . نرى أمكنة وأناساً لأول مرة ولـكننا نشعر انهم ليسوا غريبين عنا . لقد رأيناهم مرة قبل اليوم ولـكن أين ؟ لاندري . هذه هي نظرية التقمص . فان أرواحاً كانت تسكن هاته الأرض اغتربت عنها ثم عادت تلبس أجساماً جديدة وهذه الأرواح هي التى تشعر انها زارت تلك الأمكنه أو رأت هؤلاء الناس . في شبه حلم بعيد .

يقول البارون لليوس . ان عمه « فان درك » كان عالماً مشتغلاً بالتاريخ . ويخرج له أوراقه التي كان يعدها لبحث قيم فعالجته المنية دون أن يتمه . ويدعو ليوس لاتمام ذلك العمل . ويدعوه للاقامه فى المكتبة متى شاء ويدعو الخادم ليكون هو والمكتبة تحت تصرف السيد ليوس فيهم الخادم بالاعتراض ذا كراً أن السيدة جولي تسكن البرج فينهره البارون ويقول كفى ، لقد أمرت .

وتنتهي هذه الزيارة بأن يتناول الجميع الغذاء فى البرج

وفى اليوم التالي تزور جولي الأصدقاء فى « الكوخ » وهم يتفلسفون فتسخر منهم وتقول لهم : لقد قطعت عليكم الحديث وجئتكم كالدخيل ثم تلتفت فترى ظلاماً وترى النار غير موقدة . فتقول : هل أنتم في مؤامرة ما بالكم في الظلام والبرد . ثم توقد النار وتضع لهم الشاي وتجلس جلسة الطفل اللعوب أمام النار !!

وتنظر الى ليوس لتقول : ماذا بك . هل أزعجتك بدخولي . فيقول . معاذ الله بل أنت حين تدخلين . تحملين معك ألغازاً وأسراراً خاصة بالمرأة ...

قالت : اني لم أرد أن أقطع عليكم سكونكم الجميل . ولكنى كنت أشعر فى البرج بوحدة شنيعة . وشعرت أنكم هنا . فارتديت ثيابي وأسرعت اليكم

ثم يسترسلون فى حديث رقيق وبعده تنصرف

فما تكاد تمضى حتي يتكلمون عن المرأة . فيقول ليوس : تريد أن تقيس المرأة . مقياسها كبرياؤها . نحن الرجال متقاربون . نتبع قاعدة واحدة . وتقاليد متشابهة فمن السهل أن تدرك اذا درست رجلا . أن تعرف ما هو صانع ـ متى يقف ومتى ينزلق ـ ولكن لكل امرأة كبرياؤها الخاص فهناك امرأة لا تبالى بالتقاليد . وتحسبها مستهترة لا تبالي بشىء . فاذا بها تقف لشىء كما تقف الصخرة . لماذا ! من يدري أقسمت لزوج لا تحبه ويحسب الناس انها تخدعه بسهولة . او كبرياء خاص بمال او باولاد !

فكمال المرأة اذن لا قاعدة له هو خاص بها وحدها كوجهها ! وهو معبدها المقدس تدافع عنه حتى الموت !

ما اصدق هذا عن المرأة . وهو قول عملي مبني على معرفة دقيقة للمرأة

نحن لانزال في القصر . يعرض علينا صورا شتى من الحياة . فالاسرة تجتمع بافرادها لتتحادث . والبارون رجل عملي طيب القلب وافر الصحة والنشاط يصف كل شيء حسبما يراه . لايتخيل ولا يحب الأوهام . وقد يكون صريحاً صراحة قاتلة وهو يتكلم في وسط العائلة عن المرأة ، أو عن السياسة . أو عن أخلاق الانجليز وهو فوق ذلك يحب جولي . حب الأب لابنته ويدافع عنها دائما . ويعجب بليوس ولا يزال كل يوم يزوره في المكتبة ليرى تقدمه في العمل الذي كلفه به . وهو المذكرات التاريخية التي تركها عمه فان درك .

أما البارونة ، فمثل المرأة التي وثبت الى الاستقراطية فجأة . وترى المؤلف يبدع في وصفها حين تنحنى فتتحرك رأسها فوق عنقها الضخم المكتنز بالشحم كما تتحرك الفرخة الرومي الكبيرة ... وكانت تحمل مظلتها في استقامة كما تحمل السيف وتتكلم . كأنما تفتتح برلمانا أو تزور ملجأ !

ويعرض المؤلف علينا صورة أخرى لصوفي ابنة البارون من زوجته السابقة . وهي فتاة كبرت وفاتت سن الزواج ولذلك فهي تكره جولي لأنها جميلة ومتزوجة من ألماني ثري ، وتحقد على البارونة لأنها دخيلة جاءت فنزعت منها السيادة. وصارت سيدة القصر . وبينما نحن في سياق هذه القصة وغمار هذه الحوادث تصل اخبار موقعة « جوتلاند » وانهزام الأسطول الانجليزي . فيتلقاها الانجليز في وجوم : ويكون ذلك اليوم ، يوم (التنس) فاذا بالانجليز وبخاصة جولي يلعبون . وقد تخيلوا انفسهم في ميدان قتال . فتتوهج وجوههم . ويثور ثائرهم . ويندفعون في لعب الكرة كأنهم في قتال حار

والواقع ان الميادين الصغيرة كالكرة والتنس مثلاً قد تكون صوراً دقيقة لتلك الميادين الكبيرة التي يعصف فيها الموت وترخص الأرواح .

وبعد التنس يتكلمون فى السياسة . فيقول أحد الجالسين : ان القيصر خلع ، فيقول أحد الانجليز ، وإيه يعني !

ويرد البارون قائلاً : « أنتم يا انجليز لا تكتشفون الثورة إلا بعد أن تكون قد نضجت . وعندما تكتشفونها تنجحون فى اخمادها كما تنجحون فى أي شيء فى بلادكم ولكنها أيها الأسياد روسيا . وليست انجلترا

وتنتهي الليلة بموقف بديع . فان ليوس يتأخر فى المكتبة ليقرأ . وتأرق جولي وهي في غرفتها بأعلى البرج . ويرى ليوس بصيصاً من النور ينبعث من نافذة الغرفه فيصعد ويقصد اليها . وتكون نجوى وشكوى وغرام . وتسأله فى لهفه ، لماذا أتى أنها كانت تعيش فى سلام وصفاء فاذا بها تشعر بحياتها تتمزق وتحترق وتحس برغبة شديدة لأن تعذبه هو وتحرقه كما عذبها وأحرقها بناره ، ويرفع نظرر اليها ، فيرى الجوع والرعب فى عينيها ودنت المسافة التي بينهما . وأراد أن يضمها بين ذراعيه فاذا به يرتاع لئلا يمسه لهيبها . ثم تهن قواها ، وتقول فى ضراعة وذلة — أن نصف حياتي ميت ضائع وعليك أن تخلقنى من جديد

فيسرع اليها فى صمت ورقة ودموع ويأخذها اليه كما يأخذ الطفل المطيع

فى اليوم التالي ترى جولي انه لايمكنها أن تستمر على ما بينها وبين ليوس . هي امرأة متزوجة . وهي لاتحب زوجها حقاً ولكنها أقسمت ألا تدنسه ولا تلوث عرضه ، إذن فلتكتب إلى ليوس لترجوه أن يرحل . فما يكاد يصله خطابها حتى يكون هو فى استعداد من نفسه للذهاب . ويترك انكندال الى لاهاي وتدور بينها وبينه مكاتبات غاية فى الرقة والابداع ، وتشكو اليه ويشكو اليها ما يجدانه من العذاب ومرارة الفرقة ، وفى هذه الخطابات الجياشة بشتى العواطف ، مايعطيك صورة صحيحة

لصدق حبها ، خذ مثلا : منه لها « لقد مات الشتاء في نفسي ما كان أكثر ضلالي وأنا أبحث عن السلام في وحدتي ، وعن الحق في داخلي وحدي ، ولكنه حق متجمد ثلجي ، انه في حاجة من أشعة الشمس ، أشعة الحب لكي تذيبه وتكشفه ، انه لا سحر كالحب ، ولا سحر كأن تحب ، ان اصبع الله على قلب الرجل »

* * *

ويتساءل البارون والجميع عن هذا السفر الفجائي ، وتهامس صوفي واخوتها ،أما جولى فيقل صبرها وتندم في نفسها على انها ارادته ان يذهب ، فتدبر سفراً الى حيث يوجد ليوس وتستصحب البارون وتكتب الى ليوس تخبره بأنها ذاهبة الى لاهي وتعطيه اسم الفندق الذي ينزلون فيه ، وتنتظر هي هناك ، وتنتظر طويلا أن تراه ، وأخيراً يصيبها الملل. وتفكر في العودة ، فاذا به يزورهم في الفندق ، ويدعوه البارون للرجوع إلى القصر ، فيعدهم ليوس معتذرا بان اعمالا دعته لبارحة القصر بسرعة

يعود الى القصر ، وفى البرج يعود الغرام كما كان ، ويجد ليوس هدوءا وصفاءاً لم يعتدهما ، ويجد في عمله وقراءته ويرى أن هذا الحب الجديد قد كشف عن بصره ونضر له الدنيا وجعله يرى آفاقا هائلة ، بقرب هذه المرأة بقرب هذه الشمس الجديدة، وتساعده وتغمره بالدفء والهناء ، وأخذ يفهم الحياة على حقيقتها

وفي هذا الفصل نعرف رأى البارون في المرأة وهو رأى لا توافق عليه أية سيدة. ان المرأة لا تهتم الا بالزينة والسرور وبالمال كوسيلة للوصول إلى هذين — وعندما تهرم المرأة اكلمها عن ماضيها وعن حوادث عائلية وزواج على سبيل أن يتم : ولكن المرأة هي المرأة ، متزوجة او غير متزوجة لا يجب أن أتحدث اليها حديثاً جديا : سياسياً . . لا ، الحب الجدى . . لا ... المرأة كالعليق ، أو الطفل مازحة واجلسه في حجرك وهو « يلزق » ولا يترك ركبتيك

وفي هذا الفصل وصف بديع للحب

« إن عذاب الحب ناشيء من عجز المحبين عن تخطي شخصياتهم . لا سبيل إلى الخلاص من الوحدة ، أننا نقبل بعضنا محاولين أن نمتزج فلا نفلح ونتعانق عناقا شرها ، ولكننا نبقى اثنين على كل حال . وعند ما يتم امتزاج الرجل والمرأة في اشد أدوار النشوة ويحاولان أن يعبرا جسر الجسد الى وحدة الروح . يصلان الى سخرية ما بعدها سخرية. ومهما احاط الحب من خيال وحرارة وأيمان ، يبتغيان الخلود بالذريه ، فان الاحساس الجسدي يظل كما هو . جسمان منفصلان كطائرين يحاولان التلاقى خلال « لوح » من الزجاج وفي آخر هذ الفصل نعلم بان ناروتز زوج جولى جريح وقد شوهته الحرب وانه قادم الى القصر .

ويسأل ليوس حبيبته ، هل انت نادمة اوتجدين عتابا من ضميرك . قائلة كلا . كلا . . خذنى معك . خذنى معك

ويوشجان كفيهما في قسم صامت .

ولكن هذا الهوى الشديد ، هذا الاتصال الدائم . لايمكن أن يمر بغير ملاحظه فان الخصوم يتهامسون ، وحتى الخدم يتكلمون

* * *

وينقطع ليوس عن المجيء الى القصر ويعود ناروتز ، وهنا يأخذ المؤلف في تصوير آلهة ، لا في تصوير احساسات آدميين وميولهم — يعود هـذا الرجل الذى شوهته الحرب ، والحرب لم تنته بعد ، يعود ناقصاً ذراعا ومريضا بالربو ومقاسياً نوبات فى الألم هي فوق طاقة البشر ولكنه يأخذ في الكلام ، فنشعر اننا تجاه رجل يفوق ليوس . كما تقول جولى « أنه ترك مرتبة التفكير والتعمق ، أنه صعد الى أعلى من ذلك واستقر فها هو يعود بالامة التى لا تطاق . فيحاول ان يصير كـآله جبار »

وعند ما يقوم الى القصر ، نرى البارون يستقبله بحنان ولـكنه لا يـكتم رأيه العملي فى المرض فهو يقول : ان العالم كزرعة ، لا يجب أن يتسامح المرء فى الضعيف فيها وإلاقلّ الانتاج وحل الخراب ، فالضعيف المريض يجب أن يمحى ، يقول هذا ، وهذا الرأي هو رأي الرجل الجبار الموفور الصحة . الشديد النجاح الواثق من نفسه، فاروتز يحاول أن يصبر على الألم ولا يشكو ويريد أن يعيش ويقول فى إحدى محادثاته أن الرجل القوى يتحكم لدرجة ما فى الموت والحياة،لقدجاء إلىالقصر بآلامه وانتصر على الموت لأنه يحب جولى . ولاجلها يريد أن يعيش وما أبدع مايأتيفي وصفالألم.

« الألم كالماء يحاول أن يرتفع ، يغمره قليلا أحياناً وأحياناً يغمره تماما فلا يعود يرى غير الظلام ، اذن هو كالماء على كل حال ويمـكن للمرء أن يطفو عليه ويعتاده غير مبال بعمقه ولا بمده وجزره ،

وعند ما يشتد الألم يصفه بقوله ، انه كعدو له وجه واياد وعينان تطاردانه وأنه يتبعه حيث حل فيطرده حيناً وينسى انه موجود بالباب . ولـكنه هناك ، يرقب أو يطارد . وينتظر الفرصة

ويجلس روبرت الى زوجته ، ليقول : انى سمعت بان سيداً انجليزياً كان هنا فى المـكتبة وهو فيلسوف يبحث ويفكر ويدرس ، أين هو ، فتتداخل صوفىوتقول: أنه انجليزي فكيف تستدعيه ، فيجيب ، ولـكنه يا سيدتي يقرأ بلا تو . اذن لا يمكن أن نـكون أعداء ، ويرسل فى استدعائه :

ويتقابلان .. فيشعر ليوس انه تجاه رجل ممتاز ، يفوقه كثيراً ويشعر فوق ذلك أنه صورة من نفسه وتفكيره وفلسفته . فيحترمه ويشعر بالندم لأنه خانه ، واعتبر انه اذا استمر فى ذلك فانما يخون نفسه وعلمت جولى من نظرة واحدة باحساس ليوس وان ما بينهما قد انتهى ، وفى ليلة هذا اللقاء تصعد الى مخدع زوجها فتنقل سريرها الى غرفته وبقربه لتعنى به وتخدمه وتسهر عليه ، وتصف حبها له من ذلك

الوقت فاذا به كحب الانسان لرب من الارباب

ويعتاد روبرت وليوس المقابلة دائماً ، ويتناقشان في الفلسفة والتاريخ والكتب يريد روبرت من ليوس أن يقرأ له فماذا يختاران ، يبدآن « بويلهم ما يستر » لجيته ثم يتركانه الى ما هو أقوى وأبدع الى تورجنيف ويتم التلاؤم والتفاهم بينهما ، ويعجب روبرت ذات يوم وهو يفكر فيما قالته صوفي عن ليوس حين سألها عن شكله ، ابتلعت ريقها ثم قالت : أترى هذه التماثيل . التماثيل الخشبية من صنع القرن الخامس عشر ! اصداغ جوفاء وعظام ناتئة وعيون غائرة في محاجرها .. وقوام طويل وأيد طويلة .. ولونه كلون الخشب ! !

يذكر هذا ويقول : يا لله من الحقد ، ومن السخيمة !.

وتستمر الحياة وهي تسير على هذه الوتيرة ، المسكين يريد أن يعيش لانه يحب جولى ولأجلها يتغلب وينتصر على الموت ، والقوم حوله يتهامسون بما بين جولى وليوس ؛ وهو يرفض أن يسمع ، الى أن تلاحظ جولى انه صار يستند على ذراعها حتى يصل الى البحيرات فيستأذن منها ليخلو بنفسه ويلبث كذلك ساعات حتى يقبل الليل ويعود متوكئاً على عصاه ، ففي ذات يوم يعود بوجهه مربداً مكفهراً ، فتسأله عما به ، فيجيب في بساطة كاملة ، أنت تحبين ليوس .

فتسأله مضطربة ، وكيف عرفت هذا ؟ ! .

فيجيبها ، ببساطة : الهام وحجاب مكشوف ، تعترف ، وتسأله الغفران ، فلا يجيب بشيء غير انه يذهب عنها ليستعد للموت فلم تعد فائدة من الحيـاة ، ويأخذ البطل — من تلك الساعة — في الموت ، ويروض نفسه على الموت ويحتمل آلامه ، وتأخذ هـذه الآلام في التكاثر والتكاثف وتعنى به جولى عناية فائقة ، ويعوده ليوس كأعز الأصدقاء ، والرجل صامت لا يشكو ولا يتكلم حتى يشرف على التلف فتأتي صوفي في يوم عابس وتقف وبجانبه تنفث سمها كالافعى فتحكى له كيف خانته زوجته في غيابه ،

وتزيد بلاءه وتقضي عليه وتطحنه طحناً وهي تخبره أن المانيا انكسرت وفقدت النصر . ولـكن ذلك الاله المحتضر لا يتكلم ويشعر بدنو أجله فيدعو اليـه جولى وليوس ، فتسأله ، أتحتقرنى ؟ فيقول : معاذ الله ، انا لقوم علونا فوق مرتبة الغيرة والأحقاد ، وينظر إلى ليوس ، ويقول : أنت صنعت هذه المرأة فهى لك ، ويجعل يده فى يدها ، ثم يبكي ، وبعدها يسلم الروح ! ! »

يهرب ليوس إذ اصبح لا يستطيع البقاء لحظة واحدة فى ذلك الجوار ، ولايعود يفكر حتى فى أن يظفر بحب جولى . أو بقربها . لقد انتهى ذلك الحب وتفككت وشيجته ولم يعد من سبيل الى التفكير فيه انه يجد من الخيانة لذلك الاله الذاهب أن يفكر فى جولى ، بالرغم من أنه جعلهما لبعضهما وهو فوق سرير الموت

أما جولى فتجد نفسها وحيدة ، وحدة أفظع من وحدة المقابر ، ليوس هرب ، وهي علمت أن فصل الحب انتهى ، انتهى الي الأبد بموت روبرت ، ووجدت فجأة أن أهل القصر الذئاب ، أخذوا ينهشون لحمها ، أخذت صوفي تجمع الجموع وتهاجم وتبرهن للبارون أن جولي وليوس كانا يقترفان العـار تحت سقف منزله ، وأخذت البارونة تخشى على جولي من التزوج بفقير كليوس وتذهب اليه خفية فتأمره بالذهاب من نواحي القصر بسرعة ، تقول له اسرع . لأن البارون عرف مابينك وبين جولي . فتراه كصخرة جامدة ويقابلها فى فتور تام ، وتجده يعد حاجاته للذهاب

لا يزال البارون يدافع عن جولي . وهم حوله يكيلون لها التهم جزافا . يقولون أنظر الى الأقفال التي فى غرف البرج . انها غير موجودة . أو تالفة . فيجيبهم ليس هذا برهان ، فيقولون . كانا يقضيان الليل معاً فى البرج ، فيجيب ليس هذا ببرهان ، هل رأيتموهما فى ريبة . يقولون . كلا . وتحكى صوفى كيف كانت ترتاب ، وتحاول أن تضبطهما معاً . ومع الأسف لم توفق ولـكن هى مقتنعة بما كان بينهما : فيغضب البارون ولـكنه حين يخلو الى نفسه يذكر فى الحـال سفره مع جولى إلي لاهاي ،

وكيف لقيهما ليوس هناك . أدرك البارون فى الحال أن هذا برهان كاف . ويقوم الى غرفة جولي ويسألها في غير رياء عن علاقتها بليوس فلا تجد حاجة الى الكذب وتعترف فيضطرب الرجل ويتصبب العرق البارد من فوق جبينه ، فتشفق عليه وتسأله كما سألت زوجها : أتحتقرني فيجيب الآخر معاذ الله يابنية .

هذه صورة بطل آخر ، سحقه أن يرى التي يعزها تسقط في الهاوية ، ولكنه لا يحتقرها . ويسمو حبها عنده فوق كل شيء . ويخرج من حضرتها كالبطل المنهزم فيلاقيه جيش الخصوم ساخرين ، ويقولون : أعلمت . ألم نقل لك . ؟

فيصيح : اسمعوا أيها السادة . أنا لا أزال سيداً هنا . وهذه الدار داري . وهذه الأملاك لي . أنا السيد هنا . أسمعتم ألا فاعلموا أن الذي يذكر هذه السيدة بسوء يمسّني أنا . أسعدتم مساء

وتسمع جولى بما حدث ، فتكبر الرجل وترى نفسها غير قادرة على البقاء لحظة فى منزله لئلا تسوء كبرياءه المحطم فتجمع ثيابها وتهرب من القصر في لحمة الليل . . أين تمضي . تمضى الى الحبيب ليوس فيقف حائراً مشدوهاً . وقد وقف شبح روبرت أمامهما ولكنها تجثو أمامه . ويريان نفسيهما طريدين فى ذلك العالم فيحتضنها اليه . ويأخذان باخرة مسافرة ، الي حيث يبدآن حياة جديدة ..



الحرمان

قصة مصرية

الحرمـــان

قصة مصرية

جلست فيفي أمام المرآة ، وبينما هي تضع الاحمر فى شفتيها ، وبينما هي تفكر فى إخوتها الذين ينتظرونها . وفى السينما الذى ستذهب اليه معهم . خطر لها خاطر أضحكها : ان الفرق بين المرآة والمرأة بسيط مدة وهمزة كل ما هنالك .

هل لاحظ ذلك مجدى الفيلسوف الشاعر الذى لا يفوته شيء ؟ ان لم يكن قد لاحظ ذلك قبلا فهي ستلفت نظره اليه وستجعله موضوع دعابة حين تلقاه

— فيفي ! فيفي يّلا بأه ، أيه التأخير ده ؟

- حاضر . دقيقة واحدة .

وعادت تكمل زينتها وترتدى معطفها وقبعتها ، فلم تكد تتناول القبعة وتهم بالخروج حتى وقع بصرها على مجلة (العبرات) موضوعة على منضدتها ، ورأت على غلافها بالخط الكبير (الحرمان — قصة مصرية تأليف يوسف مجدى) من جاء بهذه المجلة إلى غرفتها ؟ أخوها عزيز . فهو الراديو الذى يذيع فضل مجدى ؟ أو أختها (ميمي) ؟ من يدري ؟ ولكن الحرمان ، ما أقساه من اسم ، لماذا يصر مجدى على تلك النظرة القاتمة للحياة ؟ مجدى الضحوك الذى لا تفارقه الدعابة والذى يستجيد النكتة ويصفق لها ، مجدي شخص آخر فى كتبه ، فهو لا يرى الا أن الحياة سخرية سخيفة ، ولا تنزل الستار في قصصه الا على مأساة .

— فيفي ! فيفي جرى إيه ؟

تنبهت فيفي كمن يستفيق من حلم ، ووضعت قبعتها بسرعة ونظرت نظرة أخيرة

الى المرآة وعادت فضحكت لقرب اللفظتين المرآة والمرأة .

وخرجت الى حيث ينتظرونها ومضت معهم الى السينما

***

كان السينما غاصاً بالناس ، وقد تجمعوا فى بهوه الخارجي كل ينتظر دوره — صنوف متباينة ... فهناك الشاب العاري الرأس ، يرتدى بنطلونا واسعاً ، ويضع سيجارة انجليزية في فمه ، وهناك الكهل الذى يدعي أنه لم يتخط الشباب ، وهناك الاشيب الذي لا يستطيع أن يغالط ، وهناك المرأة الشابة التي تأكلها العيون ، العجوز المتصابية ، التي تشيح عنها الأنظار ، وتقبل سيارة بعد أخرى ، فينزل منها ذكر يمد يده ، فتظهر الأنثى عند بابها فيمد ذراعه فتتأبطه وتسير إلى جنبه في زينتها الكاملة وهو فخور بها يكاد يقول للناس هذه الفتنة هى لى دونكم . ثم يمضى الى نافذة التذاكر وقد ترك هذه الفتنة حيناً ما وأخرج كل الفضة التي بجيبه كأنما يقول للناس انظروا انني غنى .

وقفت فيفي بعيدة عن رفاقها وقد شرد لبها لجأة وهي تلاحظ ذكرا أوأنثي يقبلان في تاكسى ، لقد استرعى نظرها ككل امرأة ثياب المرأة أولا ، ففحصتها بسرعة من رأسها الى قدمها . ورأت فيفي نفسها فى الخيال تنزل من سيارة زرقاء كبيرة ، في أتم زينتها والى جانبها رجل . رجل ذابل ناحل ؟ أخذ ذراعها في ذراعه ..

— فيفي ، تعالي بتتفرجي على ايه ؟

فتركت فيفي ذراع صاحبها فى الخيال والتفتت الى أخيها عزيز الذى ناداها ، قائلة (رواية إيه النهارده ؟ أنا ماشفتش البروجرام) ؟

— رواية جميلة اسمها (الحرمان)

فأمسكت فيفي بجنبها كأنما وخزتها حربة ، ثم تمالكت قواها وتبعت أخاها

وشقيقاتها الى الألواج وألقت نظرة ساخرة الى الآنسة الجالسة فى نافذة التذاكر كتمثال من الشمع يلقي ابتسامة تجارية هنا وهناك ،

وكانت الألواج ممتلئة وكل جماعة تلقى نظرة متعالية على الجماعة التي تجاورها بعد أن تفحصها وتشعرها أنها أحسن منها قادرة على المجيء الى السينما كل ليلة ،

ألقت فيفي نظرة على اللوج المجاور فرأت شخصاً بمفرده يدخل فى هدوء وقد جلس جلسة اطمئنان ، ولم يكن يبدو عليه أنه ينتظر أحداً فصاحت فيفي (مجدى اهئه) فانتبه مجدى ، وأقبل فى ظرف يرد التحية ويتهلل . قال عزيز . تعال اجلس معنا ، لماذا تجلس وحدك ؟ دائماً وحدك ، وفى لوج ! أجاب مجدي . اني أحب أن أراقب هذه الجماهير من أعلى ، أراقب هذا البحر من صخرة بمفردي . فضحكت فيفي وقالت ، دائماً فلسفة ، ان الفلسفة تأكل جسمك أكلا ، أنظر كيف أصبحت ، مسكينة زوجتك ، ولكن أين هى ؟أين هي ؛ ولماذا لم تحضر معك ؟ عزيز يقول ان الرواية بديعة واسمها كاسم قصتك ، فهل هذا محض اتفاق ؟ أم هي التي أوحت اليك ، أجاب . بل اتفاق عجيب ، أما زوجتي فهل تفضل النوم دائماً على السينما ؛

وكانت رواية الليلة محزنة قاسية . حبيب على قيد خطوة من حبيبه وهو محروم ، وفقير على قيد خطوة من الثروة وهو محروم ، وعليل على قيد خطوة من الدواء وهو محروم ، وظامىء على قيد خطوة من الماء وهو محروم ... أى شيطان هذا المؤلف ؟ لم يدع محروما الا أتى به وحشره فى روايته ، ولم يكد ينتهي الفصل الأخير حتى أخذت المناديل تجفف الدموع ، دموع الحرمان فى مئات الأعين .

ورفعت فيفي منديلها الصغير المزركش لترى أثر الرواية فى وجه (مجدي) فصادفت عينها هالتين كبيرتين عميقتين قد دفنتا آلافاً من المتاعب والذكريات . وأخيراً استقل مجدى سيارته الزرقاء الكبيرة ورأت فيفي سيارة الخيال تختفى بصاحبها في

مجاهل الظلمات فصاح بها صائح خفي . أتعجبك هذه السيارة ؟ انها سيارة الحرمان.

فيفى . دائماً سرحانة · يلاّ بقي . وكان هذا صوت ميمي تناديها .

***

دق جرس التليفون ...!

— منزل أنيس بك ؟

— أيوه ، حضرتك مين ؟

— دولت عزمي ، فيفي هنا !

— صوتك متغير !

— عندي برد !

— سلامتك !

— بكره عيد ميلادي وعندى هيصه ولازم تيجوا انتى واخواتك !

— إن شاء الله ـ ميرسى ـ أورفوار !

***

صفية أنيس ، أو فيفي كما يدعونها تدليلا هي مثل تام لفتاة اليوم . كان أبوها رحمه الله في سعة من العيش ، وهي أولى بناته فأحسن تعليمها وأرسلها الى البون باستير ، والليسيه ، ولكى تتعلم العربية جاءها بالشيخ مكى ليدرسها العربى بالمنزل وكعادة الأسر المصرية ، يسير بها الخادم فى الصباح ويعود بها فى المساء . ثم مرض أبوها ، وكان أخوها الوحيد يدرس الطب فى انجلترا فاستدعوه على عجل ، فوصل بعد فوات الأوان ووجد نفسه الرجل الوحيد الذي تعتمد عليه عائلة بجملتها ، فانتسب الى كلية الطب المصرية ، وفى الوقت الذي تروى فيه هذه القصة كان يتقدم للامتحان الأخير .

وكان عزيز كشاب ذكي مثقف قضى وقتاً طويلا في أوروبا ؛ يعطي لشقيقاته شيئاً من الحرية ، ولـكنها حرية محدودة لاتتعدى السينما والمسرح والزيارات العائلية . وهو فى نفسه لم يكن راضيا عن هاته الحرية الضئيلة ، ويرى أن التطور وقف بالمرأة المصرية عند حد يدعو الى الاشفاق ؛ حد لا حيلة له فيـه ولا الشباب المثقف الثائر أمثاله ، ما دامت الرؤوس المحافظة على التقاليد لا تزال حية تتحكم فى الأسرة ، وفي يدها أزمة الأمور ، فلو أن الامر ترك لعزيز لتمرد على التقاليد وقذف بالعوائد البالية ، ولـكن هناك أمه وعمه وخاله ، وعمته وزوج عمته ، حوائل لا تصد وألسنة لها الله ! وكانت فيفي المسكينة التي قضت أوقاتها بين البون باستير والليسيه ، وقرأت موباسان وبورجيه وأناتول فرانس ، وسافرت فى صحبة الراهبات الى باريز ، فيفى تعود الى بيت أبيها لتتناول من الحرية جرعا مناسبة لصحتها ، ولتنتظر الزوج الذى تأتي به أم محمود الخاطبة ! فيفى ترى مجدي صديق أخيها من الطفولة ، فترى مثـل الشباب المتحرر يصطدم بالعوائد فيتزوج بواسطة الخاطبة كما ينتظر أن تتزوج هي ! الفت أن تراه معهم وبينهم لأنه صـديق قديم وكانت تخالسه ويخالسها نظرات طويلة من العذاب والحرمان ، وطالما رأته يستقل سيارته الزرقاء فوقفت الى النافذة وأتبعته نظرة ساهمة طويلة ، ورأته يبادلها نفس النظرة التائهة الشاردة !

كانت فيفي تستعرض فى فـكرها كل ذلك حين قرع جرس تليفون صديقتها دولت ، التي ثارت على التقاليد مرة واحدة ودعت الى صالونها شباناً وشابات يتحادثون ويلبون نداء الجنس فى أدب تام وحياء كامل ، ولـكنها كانت تذهب اليها كارهة لأنها كلما ذهبت تعود بحسرة . لأنها هناك تري مجدى وتستطيع أن تخلو به ، ويرجعان سوية ثم ينصرف كل الى الطريق الذي رسمه له القدر ولا خيار له فيه !

***

مجدى ! دائماً مجدى ! يالله من عينيه ، انهما تتبعانها حيث سارت وتقتفيان أثرها

حتي في أحلامها ، كان ينمحي جسده كله ولا تعود تري غير عينين فيهما بريق هائل وأغوار عجيبة ، وطالما صاحتا بها : أتعجبك هذه الأعين ؟أنها أعين الحرمان! فتستيقظ على عذاب يتغلغل فى كل كيانها وتود وهي تشعر أنها تحب هذا الشخص الذي يفهمها وتفهمه تماماً . تود لو مضى عن هذه الدنيا اذ هي لاتملك السبيل اليه، ومادام هو صامتاً صمت الليل الذي لايتكلم إلا بكواكبه .

— فيفي سرحانه في إيه ؟ دائماً عقلك شارد ؟ فانتبهت كمن يعود من عالم بعيد مجهول ، ومرت بيدها على جبينها البديع تهدىء ثورة ، وتعيد الى مكانها ذكريات محمومة تهم بالوثوب ، فلمست خصلة متمردة من شعرها الكستنائي البديع ،فارتعدت... شعر كستنائي جميل وقوام يقولون أنه مثالى . فتاة فى الليسيه والبون باستير ...ولكنها حبيسة أسيرة ، ثمرة ستعطب على مهل أو يتناولها من يسرع بها الى العطب . سيان إذن ، مادام العطب هو الختام !

— فيفي . جرى ايه ؟ ماما بتنده عليكى !

فأسرعت فيفى الى أمها :

— فيفي . أنا رايحه عند تيزتك حميده هانم ، والليلة أنتم معزومين عند دولت. دولت طالعه فيها ، إياك اسمع انكم شربتم أو رقصتم !

— حاضر ياماما . ثم قبلت ابنتها وانصرفت .

***

وقفت دولت فى ثوب رائع ، وقد قصت شعرها أكثر مما يجب فظهرت كغلام فتان . اقبلت فيفي متهللة وفى ذيلها أختها الصغرى ميمي ، وفى ذيل هذه رشيدة .

— أهلا فيفي ! سنه ماحدش شافك ، اتفضلى اقدمك للضيوف .

وكانت الاركستر تعزف فى البهو المتسع ، وفى الصالون جلس خليط من النساء والرجال ، فقدمت دولت صديقتها فيفى للجمع وعرفتها بهم فرداً فرداً ، وبعد أن

أجلستها همست فى اذنها : مجدى سيحضر بعد قليل

إذن دولت تعرف أن مجدي يهتم بفيفي ؟ من أين تعرف؟ هي لم تخبرها ومجدى لم يخبرها لأنه لا يتكلم . إذن من أخبرها . هو قلب المرأة ، ذلك الترمومتر الحساس الغريب ، قلب المرأة الذي يبصر ويشم ويسمع ، والذى له ألف إحساس وألف عين وألف أذن. ورن صوت نفير . . صوت تميزه من آلاف غيره من الأصوات ، نفير السيارة الزرقاء ، سيارة الخيال ؛ سيارة الحرمان وأعين الحرمان .

***

وبعد حين قدمت دولت الى الضيوف مجدى قائلة .

« الأستاذ يوسف مجدي الشاعر . كلكم عارفينه بالطبع

وكان مجدى يبدو محنى الظهر كمن يحمل اعباء كثيرة . ويكاد الذكاء ينطق فى جبينه الواسع الذى بكرت اليه الغضون ؛ وكانت له مشية الواثق الذي تكونت شخصيته وأيقن الى أين يمضى . وقد ظهر ذلك تماماً وهو يختار مجلسه فى غير تردد كأنما بينه وبين المكان الفة قديمة . وكانت فيفي بعيدة عنه تراقبه من ركن مظلم قليلا وتتعمد أن لا يراها . لقد كانت تخشاه . وتخشى ما ينتظره من المجد . وتخشى اقبال النساء عليه . وتخشي نفسها . ومع كل ذلك تود لو أن شيئاً الفت نظره اليها .

وبعد ، فماذا يرى الناس فى ذلك الشاعر الناحل المريض. وماذا يغري النساء به ، هاهي أمينة س . تتقدم بكرسيها اليه . وها هي جليلة تراقبها فى غيرة . وهذه دولت نفسها لا تكاد تمضي لترى شؤون الدار حتي تبادله كلمة . أو تسأله إذا كان بحاجة الى شيء .

كل هؤلاء الفتيات يرين فى هـذا الرجل شيئاً خفيا يجذبهن اليه ، ويجيش فى صدورهن ، كل هؤلاء الفتيات مثلها حبيسات ، تمار مثلها مهددات بالعطب والبوار اذن لماذا تحسدهن .

ان التى تجر كرسيها اليه كالتى تراقبها كصاحبة الدار ، لو استطعن لصحن في صوت واحد . . الحرمان . الحرمان .

ومع ذلك فماهو شعورِ هذا الرجل. انه لا يتكلم الا اذا نظم قصيدة يتناقلها الناس وتصير على كل لسان ، قصائد كأنما ينتزعها من أعماق بركان أغلقت فوهته وهو ثائر . .

كانت فيفي تقول هذا الكلام للدمية الصامتة الموضوعة فى الركن المظلم بالقرب منها حينما انتبهت على صوت دولت تقول :

« البوفيه اتفضلوا . . . .

وقاموا الى البوفيه .

ووجدت فيفي نفسها تجاور مجدي . ففتح هو الحديث قائلا : أين عزيز . أجابت : عنده امتحان باكر – قال إني دهشت لمجيئكم من غير رجل فى صحبتكم على غير العادة . أجابت : جئنا فى سيارتنا ومعنا سواقنا . فقطع عليها مجدي الكلام قائلا : فيفي . ان الليلة باردة وأنت عارية الذراعين وأنا أخشى عليك، قالت ضاحكة : عجبا هل أصبحت طبيباً . قال دعينا من المزاح إني أخشى عليك حقاً ، وأتخذت هيأته مسحة الجد وقال فى صوت رقيق منخفض فيه رنة عجيبة من الطيبة والاشفاق والحنو شد ما أخشى عليك لو تعلمين . وأحست فيفي أن دمعاً يتجمع فى عينيه وهو ينظر الى جسمها النحيل مشفقاً على ذلك الجسم من البرد والاذى .

إذن هو يحبها . ربما . آه لو ينطق أبو الهول .

ومرت دولت بهما كما تمر الريح الساخرة وتعمدت التى جرت كرسيها اليه فى البهو أن تلهيه عن فيفي ؛ والتى غارت أن تنتزعه من كلتيهما . . فدعتاه الى الرقص بعد البوفيه فأبى ، والى كأس من الويسكي فأبى ، وانصرف الى فيفى فقادها الى مكان لا يتطرق اليه البرد ، وكان ينظر الى جسدها الرقيق كمن ينظر الى كنز يحرص عليه ؛ فهل كان يتمنى أن يأخذه بين ذراعيه .

بالرغم من ذلك شعرت فيفي بالبرد وأحست برجفة وبحاجتها الى الانصراف فأستأذنت فأذنت صديقتها راغمة واستصحبها مجدي هي واختيها ؛ وقد لفها بمعطفه وجلس ساكنا مشفقاً والسيارة تنهب الطريق . .

***

أمسكت فيفي جنبها بيمناها وهي تتنفس بصعوبة فائقة . وهمت بالقيام من فراشها فلم تستطع . خانتها رجلاها وأتعبها الجهد فلهثت كمن جرى بضعة أميال . وكانت أمها تمر فى طريقها الى غرفتها . فرأت ابنتها تهم بالقيام ثم تعود فترقد فراعها ذلك وأسرعت اليها . وما لبثت أن صاحت : أنت محمومة . ألم أقل لك أن تتقي البرد . ماذا نفعك الذهاب الى دولت . واندفعت تتكلم وتسب دولت وأخلاق دولت وهذا العصر الذى فسد فيه كل شيء . والذى يجري فى تياره حتى بناتها التي تعبت فى القيام على تربيتهن . وجاءت دادة حليمه على صوت سيدتها لتسأل عن الخبر . فوجدت الأم فى هـذا السؤال دافعاً جديداً للسخط على ابنتها وعلى صديقة ابنتها . وبعد أن بلغت قمة الغضب . انحدرت فجأة إلى سفح الحنان وذهبت تبحث عن الترمومتر . وتقلب دفتر التليفون باحثة عن نمرة كلية الطب لتستدعى ابنها عزيز ثم تترك هـذا لتبحث عن علبة الاسبيرين . ثم تنتقل الى الاجزخانة الصغيرة المعلقة بالحائط لتبحث عن شربة الملح فلا تجدها . ثم تتذكر فجأة أن ميمي تعرف مكان كل شيء فتسرع إليها لتوقظها . كل هـذا وفيفي تشعر فى جنبها بوخز كالحراب . وقد غمرتها الحمى وتوهج خداها وانتثرت ذوائب من شعرها الجميل متراخية أسيفة .

وعادت الأم وبناتها يحملن ما يعرفنه صالحاً لمعالجة الحمي . وهن ينتظرن المدد من أخيهن . وأخيراً أقبل هذا المدد . مضطربا شديد الاشفاق ؛ وأسرع الى فيفي فتناول معصمها وعد النبض . وأخذ الحرارة . ثم أخذ سماعته ففحص الصدر والرئتين واستعرض فى ذهنه سريعاً ما قرأه فى أمراض الصدر ليلة أمس . الامتحان قاب

قوسين وهو لا يعرف كيف يشخص حالة كهذه . وبفرض أنه شخصها . ماذا يصنع أكثر مما صنعه هؤلاء السيدات . ثم يدعو مجدى . مجدى ليس بطبيب ولـكنه مخلص ذكي وسيقف بجانبه فى هذه المحنة كما وقف فى كثير غيرها . ثم صاح متكلفاً الطمأنينة ومخاطباً أمه : —

— حاجة بسيطة . برد ويزول انشاء الله . حقنة كافور ودواء بسيط من الاجزخانة .

وذهب الى غرفته ليجهز الحقنة وينسخ التذكرة من دفتره الصغير ثم أرسل الخادم بخطاب الى مجدي يستدعيه .

***

لم يكن مجدي بالمنزل حين ذهب الخادم بالخطاب . فأعطاه لزوجته . ففتحته كعادتها فى الخطابات التى ترد لزوجها بلا استئذان . وقرأته كمن يتهجي وألقته بسخط على المائدة القريبة : دايما عزيز وأهل عزيز . ماذا يريدون من مجدي . ألا يتركونه مرة مرتاحا . ما شأنه هذه المرة بهذه الفيفي . ولماذا لا يستدعون الطبيب يا لهم من بخلاء . وسيذهب مجدي ملبيا دعوتهم بالطبع وستحرم منه ساعات طويلة وسيعود اليها منهوك القوي . غائر العينين شاحب الوجه . ألا يفهم انها تحبه . ألا يفهم انها تريد قربه . يا الله متى يفهم ومتى يدرك انها احق من هؤلاء الناس بتلك الرعاية التى يبعثرها هنا وهناك . إن فيفي ليست اجمل منها . ودولت التي تدعوه الى منزلها من حين لآخر ليست أرشق منها قواما . وم . هانم الجريئة التي تطلب منه مؤلفاته بالتليفون ليس لها سحرها ولا فتنتها . انها ستطلب اليه حين يعود الى المنزل ان لا يلبي دعوة ولا يزور أحداً . . أن الناس تفسده وتغير طباعه . وكم حاولت أن تصرفه عنهم وأن تبهجه وتسره . فحاولت عبثاً وهي تشعر أن المسافة بينه وبينها تبعد . إنه يهجرها . إنه لا يجد لكلامها معنى . أصبحت لا تراه إلا عند ما يأتي الى هذه

اللوكاندة ليأكل ويستريح ثم يمضي الى حيث يحمل اعباء العالم ؛ موزعاً قلبه مضيعاً شبابه ياحسرتاه . وهل له من شباب . ما باله لايتكلم . ما باله لايفتح قلبه ولا يخرج عن صمته الشنيع . وأخيراً جلست فى ركن وحدها تنتحب .

لقد كانت رفيقة تحب مجدى حقا .

ولكنها كانت تحب نفسها . وهذا ما جعل حبها ضئيلا قزماً كالشعلة الضعيفة لاتنير إلا قليلا . ولا تفيد الا حرارة لاتجدى فتيلا . ومجدي الذي يفهم كل شيء يعرف هذا . وطالما صرح لها به فظنت أنه يجرحها واسترسلت فى البكاء والتنويح أياماً .

ولما عاد مجدى ناولته الخطاب مفتوحا فنظر اليها مجدى ثم الى الخطاب و كظم غيظه . قالت ساخطة :

جيت ليه . روح لاصحابك . أصحابك كتير عايزينك . فشخص بصره اليها كاظما غيظه أيضا فاستتبعت قائلة : الساعة كام الآن . الرابعة بعد الظهر . فأين كنت . مسكينة هذه الكلبة التى تنتظرك . وستتناول غداءك الآن فى صمتك المريع وتخرج بسرعة الى حيث يتخاطفك العالم والاصحاب ، وستعود شاحبا مريضا تحمل أعباء الدنيا فوق رأسك ، لاالتنام بل لتسهر وتفكر ... وتفكر . وأخيراً . وأخيرا . أصبحت عيشتنا لا تطاق . فشخص اليها كاظما غيظه للمرة الثالثة .

قالت وقد هدأت ثورتها قليلا . والآن أريد رأيك . بدى أعرف لي حل .

قال فى هدوء كامل وضبط نفس عجيب تريدين رأيي : أنت تعرفينه ومع ذلك فأني أعيده على مسممك . انى أشفق علي بصرك الذي لايرى أكثر من باب هذه الغرفة وعلى روحك التى لاتزيد فى الحجم عن روح النملة أنا لا أكرهك وانما أنا حزين . حزين حتى الموت فصرخت قائلة : أنت تهينني وتجرحني . قال معاذا الله . ودار على عقبيه وخرج مسرعا . اماهي فانتقلت من سيل من الكلمات الى فيض من الدموع والزفرات .

***

وأقبل المساء بسرعة ومعه الرهبة والقلق اللذان يلازمان الظلمة ، ومعه احساس خفى مجهول بأن القدر ينظم مؤامرة خلف الغسق القرمزي الداكن . بهذا أحس جيش الاحباب الواقفين حول فراش المريضة . وبهذا أحس عزيز الطبيب المبتدىء الصغير أمام العدو الخفي الكبير وهو ينظر من خلال ستور النافذة ويتسمع إلى صوت سيارة قادمة .

يالله ! سيارة تحمل شخصاً ليس بطبيب ومع كل ذلك ، ففي هذا النفير صوت الخلاص ! ألم يتهلل عزيز ؟ ألم تفتح المريضة عينيها وتبتسم أساريرها لأول مرة فى نهار عابس مستطير ؟ ها هو نور قادم من بعيد يبشر بابتسامته ان قارب النجاة فى أثره ، ليكن كاذباً أو غير كاذب ، فان على شفته ابتسامة ، وربما كان الموت نفسه عذباً على ضوء حنان كهذا ؟

قال مجدى لعزيز على حدة : ليس عندنا دقيقة نضيعها . ألا ترى الزرقة التى تعلو شفتيها ؟ أنا لست بطبيب . وانما يمكننى أن أدرك بسهولة أن هذا من قلة الهواء الصالح في رئتيها ، ثم انك تقول ان عدد نبضاتها فوق المائة ، علينا أولاً بطبيبين معك يشدان أزرك وبعد ذلك علينا أن نتناوب السهر ! فنظر اليه عزيز مدهوشاً من ذكائه العجيب وخرج ليستقدم طبيبين يثق بهما وترك مجدى فى مكتبه .

وجد مجدى نفسه وحيداً ، فزال القناع الذى لبسه منذ هنيهة ، سقط بالرغم عنه ووقف مستنداً الى النافذة ناظراً إلى اللانهاية السوداء كرجل سحقه الدهر سحقاً . فيفي فى خطر الموت . وكل بضاعته فى سبيل انقاذها قلب وابتسامة ! لماذا لم يكن الطبيب الذى يعنى بها ! لماذا لم يكن زوجها ؟ زوجها الذى يأخذها بين ذراعيه مقبلا خصلاتها الناعمة وعينيها الذابلتين ؟ لماذا ؟ ولماذا يمضى الى منزله ليتلقى العاصفة بعد العاصفة وقد شبعت روحه من تقلب الأنواء والأعاصير ؟ آه أيها الحرمان انك جاثم فى اللانهاية السوداء كعقاب هائل ناشراً جناحيك على العالم مادام مخالبك القاسية ،

ها هو مخلب منها يصل الى روح الشاعر المسكين فيتحسس مكانها ، محاولا أن ينزع المخلب فلايستطيع ، وأخيراً ! هاهم الأطباء الذين سيشفون فيفي ولكن لا ! انه هو الذي سيسهر بجانبها هو الدخيل الغريب، الذى ليس له من صفة الا أنه صديق أخيها . هو أقرب الناس الى المريضة الموسدة . اقربهم اليها لأنها توأم روحه ولأنه قدم قلبه الذبيح على هيكل الحرمان ! واستنجد بدمعة يخفف بها عن نفسه فلم يجد ، لأن دموعه قتلتها فى محاجرها كبرياء الرجل الذي يأنف ان يبكي !

***

قال الاطباء أنه التهاب رئوي وأنه صراع بين الحياة والموت ، وكتبوا تذاكرهم وتركوا أوامرهم ومضوا . وماذا يعنيهم بعد ذلك ؟ لقد شاهدوا الف فيفي والف التهاب رئوى ، وأصبحوا يتناولون أخبار الموت والشفاء فى هدوء كما يتناولون الطعام !

وكان مجدى يترك منزله وعمله غير مبال بما يقال عنه الى حيث يتناوب السهر مع عزيز ، وكانت المسكينة في غيبوبة تامة لا تدري من أمر الدنيا شيئا

كان الضحى يهم أن يطلع ، وقد تعب عزيز واكوى فوق الكرسى الطويل بجانب السرير ، وكان مجدي خائر القوى يهم أن يلقى بنفسه من العياء فوق الكرسى المجاور لصديقه حين فتحت فيفي عينيها . افاقت وتلفتت الى الدنيا حائرة كمن يعود من عالم الغيب ، ورفعت عينيها الى الساهر فوق رأسها وقد فهمت كل شيء !

ثم طلبت جرعة ماء ، فسقاها ، ثم وضع الكوب مكانه ، واقبل عليها فاحتضنها وقبلها مراراً ، فنظرت اليه بعينيها كأنما ترد قبلاته بابصارها ، وفتح عزيز عينيه ، فرأى فيفي فى ذراعى صاحبه ، فأغلقهما كمن لا يرى . . !

وسمعها تقول اني اشعر بالشفاء . . ! وسمعه يجيب : وانا ايضا !

ورأى نفسه فى النوم يصارع القدر ويضربه لان مجدي لم يكن زوجا لفيفي !

النواقيس

لمحة من الادب الايطالى

النواقيس

قصة لجبريل دانونتزيو الأديب الايطالي المعروف

أصيب بياسكى بمرض الغرام فلم يغمض له جفن وظل ليلتين دائما يقلب جنبيه على وخز الابر وراح يشتم فى سقيفته رائحة عقبة هي رائحة ثمر اللوز ولم يكن يدرى من أين تأتيهاته الرائحه ويقول فى نفسة « تلك يد القديسة بارب » غير أنه عاودته الذكريات ومرت أمام عينيه زلفينا كما رآها لأول مرة مستندة إلى جذع شجرة اللوز ترمى ببصرها إلى شراعي سفينة فى عرض البحر وحولها موج من الكتان المزهر الأزرق وفوق رأسها نبت أبيض معطر يتهامس فى ضوء الشمس . وقد فتحت عينيها على مثل زهرتين رائعتين فلم يكن عند بياسكى شك فى أن فى قلبها زهراً عبقاً كذلك وأقبل الفجر على حدود البحر المتوسط وهو ماض فى خيالاته ممدداً فوق حصيره وقد جعلته الذكرى المجنونة الوالهة يرى فجره المنبثق فى ربيع حياته

وكان الفجر قد بدأ فى خجل يكشف خط البحر الادرياتيك البعيد فقام يتسلق السلم الخشبى حتى أصبح عند قبة الجرس وبلغ أوكار الخطاطيف

وكانت بالجو أصوات غريبة غامضة كأنها لهث الهارب . فمن تنفس الاوراق الى تماس النبت المخضر إلى خفق الأجنحة . وكانت المنازل ماتزال تحت سلطان النوم والسهل يفتح جفنه فى الضباب الخفيف الذى يستره . وتماوجت أعالي الأشجار فى نسيم ذلك الفجر الراكد وظهرت الربى تتدرج فى ألوان بنفسجية حنونة وتذوب

فى لون الأفق الأغبر . وامتد البحر صافياً كصفحة الفولاذ وعلى هذا وذاك غلالة من الصفاء والطراوة تضمحل خلفها النجوم وتمضى واحدة بعد واحدة

وكانت النواقيس الثلاثة الصامتة بأجوافها النحاسية ذات النقوش العربية تنتظر بياسكي ليرمي باهتزازاتها الرائعة فى انفاس الصباح . وأمسك بياسكي بحبالها . ففي الهزة الأولى أخذ أكبر الأجراس يرتعش ويفتح فمه الكبير . ثم أغلقه ثم عاود فتحه فانتشرت موجة من ذلك الرنين يتبعها زئير امتد فوق السطوح ونشرته الرياح فوق السهل بأجمعه وعلى طول الشاطىء . وتلاحق الدوى ودبت الحياة فى نحاسة الناقوس كأنما هو مارد جن غضباً أو عشقاً فثار يمنة ويسرة فاتحاً فمه ذا الفوهتين مرسلا فى الفضاء نغمتين تضمهما زمجرة ممتدة مستمرة لاتلبث أن تقطع تناسق الصوتين إذ يتآلفان فى سرعة ثم تطن لهما رجفة كرنين البلور تأخذ فى الانتشار والاتساع فى الفضاء

وتقابلت تحت القبة أمواج الصوت بأمواج الضوء فطرد النوم عن أجفان النوام وأخذ الضباب يتصاعد ويتبخر فيأخذ لوناً مذهباً ثم ينحل في رونق الصباح. وأخذت السفوح تصطبغ بلون النحاس واذا بصوت آخر — صوت الناقوس الثاني — صوت نائح أبح مشجوج كصوت الفريسة فى براثن الوحش . ثم تلا ذلك صوت آخر صوت صوت الناقوس الثالث وكان بياسكي يسميه « الشادية » إذ كان ذا نغم رائق ضاحك كوقع قطرات المطر على صفحة البلور

ثم هناك نواقيس أخرى استيقظت على نداء هذه فمنها ناقوس سان روكو الاشقر المتربص بين أشجار البلوط . ومنها ناقوس سانتا تريزا وناقوس الدير . أفواه عشر أو خمس وعشر . نحاسية تنشر فى الوديان ذلك النغم المنوع السماوى فى زفة من النور . وتملكت بياسكي نشوة اسكرته وأنه لخليق بالرؤيا ذلك الغلام الكبير العظام العصبى ندبته العقيقية التى فوق جبهته ، اذ يرفع ذراعيه لاهثاً فيتسلق حبال الناقوس الكبير

ليبلغ الشادية فيقرعها وما يزال طنين الآخرين يدوي في الفضاء . لقد كان ملكا هنالك حيث تسلقت اللبلاب بروح الشباب ذلك الحائط العارى العجوز والتفـّت بعروق السقف الخشبي كأنها جذوع حية وكست الحجر الأحمر باوراق يابسة لامعة كأنها قشرة منقوشة . وتهدلت برفارفها الكبيرة كمجموعة من الزواحف الدقيقة المغيرة على الآجر الآهل بالأوكار القديمة العامرة بالخطاطيف العاشقة .

مسكين بياسكى . كانوا يدعونه بالمجنون على أنه كان ملكا وشاعراً حيث هو . فعند ما تحنو السماء الصافية على القرية المزهرة ، ويلتهب بحر الأدرياتيك فى شعاع الشمس أو عندما تحفل الشوارع بالعمل وأهله ، يبقي هو فى القبة كفرخ الصقر وقد الصق اذنه بجناح الناقوس الكبير — ذلك الوحش الهائل الذى شج له جبينه ذات مساء — وبين وقت وآخر يروح يقرع باصابعه ليتسمع الى النغم الطويل اللذيذ وعلى كثب منه تلمع « الشادية » كالماسة وقد اكتست بالنقوش وبينها صورة القديس انطوان . وبالقرب من الشادية الناقوس الثاني الذي إصيب جوفه بشق كبير وتثلمت شفته .

كم من فكر حول هاته النواقيس وأحلام مشردة غريبة وطيوف من العواطف والرغبات ! ويا لله من خيال زلفينا الجميل إذ يطلع على ذلك الموج الصامت فى الاظهار المشتعلة أو يضمحل مع الغسق الذاهب حينما بدوي الناقوس الكبير دوي الوداع وتبطيء رناته حتى تموت على مهل .

***

ذات يوم من ابريل تقابلا خلف شجرة الجوز تحت سماء لبنية فى سمتها عسجدية نحو مغربها وكانت هى تغنى اذ تجز العشب لبقرتها . وصعد عبق الربيع الى رأسها فمال بهـا كأنما تستنشق خمراً لذيذة وكلما مالت مس دثارها جسمها العاري مسا خفيفاً

كأنما يعبث به فأحست سروراً لذلك واطبقت عينها نصف اطباق . فأقبل بياسكى يتخطر .

وقد جعل قلنسوته الى الوراء ووضع باقة من القرنفل خلف اذنه ولم يكن غلاما شريراً . كان ذا عينين سوداوين كبيرتين يبدو فيهما حزن قاس ونوع من الحنين . من تلك العيون التي تذكرنا باعين الوحوش فى الأسر . وكان له فى صوته شىء من السحر العميق غير المألوف فهناك فى أعلى القبة حيث عاش يصطحب النواقيس كان على اتصال بالهواء الطلق والنور العظيم والوحدة الكبيرة . وتعلم من كل هذا لغة لها رنينها وانغامها وعمقها .

قال : « ماذا تصنعين هنا يازلفينا ؟ » قالت : « اجمع العشب لبقرةالأب ميشيل . هذا ما اصنع ! » وما زالت منحنية تجمع العشب وصدرها يخفق

قال : « آه يازلفينا ما أطيب الرائحة ! لقد كنت فى اعلى القبة ورأيت الزوارق تدفعها الرياح وبصرت بك وسمعتك تغنين » ووقف عند هذا الكلام إذ احس بصوته يختنق وسكت الاثنان معا . وهما يصغيان الى حفيف أوراق شجر الجوز وهدير البحر البعيد . وشحب لون بياسكي ثم مال هو أيضا نحو العشب وانطلقت يده تبحث عن يد زلفينا المحمرة كالجمر

قال وهو ممسك بيدها : « تريدين أن أساعدك ؟ »

قالت : « اليك عنى » وازداد صوتها ضعفاً وهي تصيح « اتركني »

ثم استسلمت اليه وتركته يقبلها وبادلته قبلاته ومدت اليه شفتيها اذ تقول : « لا لا ! شفتين جميلتين رطبتين كثمر الشليك »

ونما العشب على مر الزمن ونما الغرام ايضا وفى وسط ذلك اليم الاخضر انتصبت زلفينا الهيفاء وقد عقدت منديلا على جبينها وصدغيها . لله ! أى غناء مرح تحت

ظلال التفاح والتوت وعلى طول الاغصان المحملة بزهر العسل ! بينما هناك عند القديس انطونيو انطلقت « الشادية » في نغم مرح طروب كالطائر العاشق !

***

ذات صباح وقف بياسكي ينتظر زلفينا عند الحوض وفي يده باقة من زهر القرنفل جمعها لها . وطال انتظاره وهي لم تأت بعد فقد كانت مريضة بالجدري . مسكين ذلك الغلام فأنه ما كاد يعلم بذلك حتى جمد الدم في عروقه وصار يترنح اكثر من تلك الليلة حين شج الناقوس رأسه . والذي ساءه هو أن يضطر الى شد حبال الناقوس بكل قوته وهو الواهي القوي الخائر القلب وكان ذلك في يوم أحد ضحكت فيه أنوار الشمس واهتزت اغصان الزيتون وتجمعت سحب الأريج وتصاعدت الاغاني والصلوات إلى اذنه . بينما زلفينا تتألم ألما لا يعلم به الا الله .

ومرت أيام سوداء . كلما اقبل الظلام ذهب بياسكي يرود منزل زلفينا كما يرود الثعلب المقبرة فقد كان يقف عند النافذة المغلقة وينظر الى بصيص النور بعينين متورمتين من البكاء ثم ينطلق الى مكانه في القبة كالمجنون حيث يقضي لياليه الطويلة بالقرب من نواقيسه الصامتة . وقد جند له الحزن حتى غدا كالجثة البالية وتحته الأزقة المغمورة بنور القمر والصمت الرائع . وأمامه البحر القلق يضرب بعبابه الشواطىء المهجورة . وفوقه زرقة السماء القاسية

وهناك كانت زلفينا تلفظ أنفاسها الأخيرة وقد شوه الداء وجهها . رقدت صامتة بين الشموع الشاحبة في ضوء الفجر القادم وبين الهمس والصلوات ، همت مرتين أن تتكلم فرفعت رأسها الأشقر ولكن وقفت الكلمات في حلقها وقد خانها الهواء وهجرها النور وحركت شفتيها بقول غير مفهوم كالحمل الذبيح ثم أصبحت في برودة الموت !

وعلم ياسكي المسكين بأمرها فمضى كالمعتوه الزائغ البصر ليرى ذلك النعش المكلل بالورد وفى داخله امتد ذلك الجسد الذى عدا عليه الداء ودب اليه الاضمحلال والبلى خلف الكفن الأبيض . فرمى بنظره اليه وقد اختلط بالجمع ثم عاد الى مكانه من القبة فأخذ حبل الناقوس فجعله عقدة حول عنقه فأذا به جثة هاوية فى الفضاء ولم يبق للمسكين من أثر ولا ذكرى غير بضع نغمات انطلقت بها « الشادية » فى أثره وسرب من الطير ريع فانطلق فى نور الشمس .

